موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٣٤)

الصحبة

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

٣٤

الصحبة

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

دار صالح

www.nttenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.nttenback.com

ح مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٢١٩-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٣٤)

١- الأدب العربي -- موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٢١٩-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٣٤)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
الصحبة لغةً	٧
الصحبة اصطلاحًا	٨
الصحبة	٩
ضروب الصحبة	١٦
اختيار الأصحاب	٢٨
حقوق الصاحب	٣٦
تلون الأصحاب	٥٢
التجاوز عن زلات الأصحاب	٥٧
صحبة العلم	٦٧
صحبة السفر	٧٥
صحبة الإنسان غير الإنسان	٧٧
الفهارس	٩٥

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

توطئة:

البحث في العلاقات الإنسانية بحث متسع الجوانب، رحيب المجال، متعدد المشارب والآراء والأغراض، والصحبة تعد أهم العلاقات الإنسانية وأكثرها مساسًا في حياة الإنسان وتأثيرًا في سلوكه. وأمام الصحبة تمتد دائرة الحديث وتتسع باتساع المدّ الاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان، وتختلف علاقات الصحبة مثل اختلاف طباع الناس وتتلون مثل تلون ظروفهم. ولا شك أن صلة الإنسان بمن حوله هي صلة اجتماعية وضرورة حتمية وهي طبيعة ليست بشرية فحسب بل كونية عامة، إذ كل جنس يميل إلى جنسه ويألفه ويأنس به، ومن هذا الميل والإلفة ما يدوم ويستمر، ومنها ما يتغير ويتبدل.

والإنسان يأتي على قمة المخلوقات الاجتماعية الأليفة التي لا تستطيع العيش بعيدًا عن جنسها، ولهذا نشأت عن ميله بطبعه إلى الاجتماع حاجته إلى الصحبة واختياره لمن يصحبه إن في الحياة كلها أو في جزء منها. وهو مخلوق أليف منجذب لنوعه موصول بعاداته وتقاليده في الحياة، مجبول على التقلب بظروفها وأحوالها، وهو بهذا لا يمكن أن يخلو من المؤثرات التي تحدد تعامله مع الآخرين، وتمكن كثيرًا من سلوكه حين يتفاعل مع الإرث الإنساني، ويعيش شكلاً من العلاقة الحتمية المقبولة في دائرة التعامل اليومي، وإن لم يكن ذلك رغبة منه فإنه بحاجة إليه، إذ لا يستطيع أن يعيش بمعزل عمن حوله، وإذا تحققت صلته بجنسه التزم بالضرورة الاختيار لمن يوافقه طبعًا ويشابهه سلوكًا.

وقد اجتهد الأخلاقيون في تشريح طباع الناس وأحوالهم وتحدثوا عن الطريقة المثلى في بناء العلاقات والصداقات، وكيفية الممارسة المقبولة في التعامل، وقد يحرص بعضهم على معرفة دخائل النفوس وموقفها منه حتى يرتب صلته بالمجتمع وبمن يريد أن يصحبه على معرفة ويقين حسبما يمليه عليه ظنه فيهم حتى يتخذ لكل موقف يعرض له موقفًا مناسباً يتفاعل مع مواقفهم نحوه بما يراه يصلح للصحبة المقصودة.

www.mtenback.com

وقد حلت أبعاد العلاقة محلاً ذهنيًا واسعًا في الفكر البشري والتزم أكثر من تناول العلاقات العامة بالحذر وتحدث عن صدق الصحبة أو الصداقة بشيء من التحفظ، وإذا بحثنا في الصحبة خاصة وهي شيء أوسع من الصداقة وجدنا أن النظر إليها مختلف باختلاف التصور لوظيفة الصاحب والغرض المطلوب منه نحو صاحبه كما أن للصحبة معنى واسعًا قد لا يعني الميل والاصطفاء ولكنه يعني الضرورة التي لابد منها. والغالب أن يعنى بكلمة الصحبة الاجتماع بسبب من الأسباب أو لغرض من الأغراض مثل الصحبة في السفر أو العمل أو غير ذلك فهي صحبة قد لا يتولد عنها ما يقصد بكلمة الصاحب، وإنما يصدق عليها مجال الصحبة الواسع. وعن الصحبة بكل مضامينها ودلالاتها وحقوقها وأغراضها تتحدث هذه النصوص التي قد تعطي شيئًا غير قليل عن مفهوم العرب للصحبة ونظرتهم إليها وثقافتهم التي عبر عنها موروثهم الفكري.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الصحبة لغة:

صحبه يصحبه صحبة: عاشره، والصحب جمع صاحب،وجمع الأصحاب أصاحيب. وصحب الشيء جعله له صاحبًا، وكل شيء لازم شيئًا فقد استصحبه؛ والصحبة والصحب أسماء الجمع، وقيل في النساء هن صواحب يوسف، والصحابة مصدر قولك صاحبك الله وأحسن صحابتك، وتقول عند التوديع معانًا مصاحبًا. واصطحب الرجلان وتصاحبا، واصطحب القوم: صحب بعضهم بعضًا[1].

وقد نأخذ هذا التعريف الموجز مدخلاً إلى درس الصحبة في كتب التراث، والأدب العربي، سعيًا لاستجلاء المعنى الأخلاقي والاجتماعي في الفكر العربي.

ويأتي بمعنى الصاحب: القرين.

ومنه اقترن الشيء بغيره، وقارنته قرانًا: صاحبته، والقرين: الصاحب. وقرينة الرجل زوجته. وقرنتُ الشيء بالشيء وصلته. والقرين يكون في الخير والشر. ومن معاني الصاحب أيضًا: الخِدْن. والخدين والخدن: الصديق، والصاحب المحدث والجمع أخدان وخدناء، والخدين الذي يحادثك ويكون معك على كل أمر ظاهر وباطن، والمخادنة المصاحبة.

ومن مرادفات الصحبة: الأُخُوَّة،والأخ هو الصديق والصاحب، والإخوة في النسب، والإخوان في الصداقة[2].

---

[1] الفيروز آبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (١٩٩١م)، مادة (صحب)؛ ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار لسان العرب، (د.ت)، مادة (صحب) ؛ الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، بيروت، دار الجيل، (١٩٨٧م) مادة (صحب).

[2] الرازي: مختار الصحاح، ص٨، ١٧١؛ ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٨٠١. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج٤، ص٣١١.

www.mtenback.com

ومن معاني الصحبة الصداقة والعشرة ولين الجانب، والصحبة مـــادة واســعة متعددة المعاني في معاجم اللغة، ويكفي من ذلك تعريفها التعريف الموجز الذي سبق.

الصحبة اصطلاحًا:

وبعد هذا التقديم اللغوي الوجيز، ينصرف الكـــلام إلى المعنـــى الاجتمـــاعي والإنساني للصحبة، فالصحبة ثمرة من ثمار دماثة الخلق ولين الجانب، فَحَسَن الخلـــق في الناس أَلِفٌ مألوف، مصاحب مصحوب، وسيىء الخلق لا يلقى من جل النـــاس إلا النفور والبغض، ولا يعدم أن يجد فيهم مثيلاً وشبيهًا فيصطحبان،ولكنهـــا صحبـــة لا تطول حتى تنتهي إلى قطيعة وتدابر. ولقد أعلى العرب من شأن الصحبـــة وحســن العشرة،وفاضت آثارهم الأدبية في مدحها ومدح من رعى شروطها وحفظ آدابهـــا وأدى حقوقها. وذموا من قصر في ذلك. غير أن من بينهم مـــن أفرط في التوقي مـــن شرور الخلق فآثر العزلة على الصحبة، ورفض الخلطة بالكلية. ومنهـــم مـــن توســط واختار ألا يبقى على حالٍ واحدة، وإنما يغير من عزلة إلى صحبـــة بحســب الزمـــان والمكان،والحال والرجال. وشفعت كل فرقة من هذه الفرق الثلاث رأيها بأدلة وحجج قوية، وأرسلتها في كلمات وأمثال وأشعار بليغة. ولأن هذا البحث يتناول الصحبـــة ومرادفاتها وحقوقها وما يتعلق بها، فقد دفعنا كل هذا إلى أن نتتبع ما تناثر في كتـــب التراث العربي في موضوع الصحبة وحسن العشرة ولين الجانب لجمعه تحت عنوانـــات واضحة ومباحث محددة تيسيرًا على القارىء، لعلنا نقدم ما يحض ناشئة العرب علـــى الاستمساك بهذه القيمة النبيلة التي أعلى شأنها أسلافهم. ومعلوم أن مثل هذه القيـــم لا تتغير في أصولها بتغير الزمان والمكان والإنسان وإن أصابها التحول والتبدل الـــذي لا يغير دلالتها وجوهرها وإن لون شكلها في بعض الأحيان والمواقف.

والصحبة في ثقافة العرب ألفة الناس ومخالطتهم ومعاشرتهم بما يقتضيه كل ذلك من رعاية حقوق الأصحاب، من الزيارة والمؤانسة والتهاني والتعازي والســؤال عـــن

www.mtenback.com

أحوال الأصحاب وكافة حقوق الصحبة على سعتها. ويقابلها ويضادهـــا الانطـــواء والاعتزال.

وإزاء هذين الخيارين انقسم العلماء وأهل الرأي والأدباء والشـــعراء وصفـــوة الأمة، ممن قيض الله لهم العقول الكبيرة والألسن الذربة إلى فريقين، فريق اختار اتخـــاذ الأصحاب والإخوان، وفريق آثر العزلة وترك مخالطة الناس، فساقوا الحجج والـــبراهين والأسانيد، وأبدوا علل اختياراتهم. وبينوا الفوائد والمناقب فيما اختاروه من عزلـــة أو صحبة، والآفات والغوائل فيما تركوه. ومن رجال الصفوة هؤلاء من رأى خلل اختيار العزلة مطلقًا أو الصحبة مطلقًا، واعتمدوا النظرة وإعمال الفكر في الحالات المختلفـــة بحسب الزمان والمكان والرجال. وهم يرون أن الصحبة والمخالطة هي الأصل بغـــرض بث الفائدة أو تحصيلها، غير أن بعض حالات المخالطة إذا ما كانت مظنـــة لجلـــب الغوائل فتركها عين الواجب.

ولعل أشهر الناس ميلاً للعزلة وإعراضًا عن الصحبة الزهاد والعباد،على الرغـــم مما يبدو في ذلك من مخالفة لفضيلة المخالطة والمؤاخاة المحضوض عليها بنصوص بينـــة في القرآن الكريم والحديث الشريف، غير أن الرجال فندوا حجج من حاجهم بذلـــك في تآويل يطمئن إليها القلب وتسكن إليها النفس. وليس موضوع هـــذا البحـــث في العزلة ورأي الناس فيها ولكنه في الصحبة وفوائدها.

الصحبة:

إن في النفس السويَّة ميلاً إلى اتخاذ الإخوان والأصحاب، ولا مراء في ذلك ولا جدال، ومن سنة النبي أنه اتَّخذ الأصحاب، وفي المأثور عن صفوة الأمة من العلمـــاء والشعراء والأدباء فيض من الأقوال فيها الحض علـــى اتخـــاذ الأصحـــاب، واتخـــاذ الأصحاب سبيل يوصل إلى التعلم والتعليم والانتفاع،والتأدب والاستئناس والإينـــاس وجملة من الفضائل الكثيرة.

www.mtenback.com

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[٤] وفي الحديث:«حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ»[٥] وفيه أيضًا: «المتحابون في الله يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»[٦]. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال:«المؤمن مألفة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» [٧]. وقال علي رضي الله عنه [٨]: عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار«ما لنا من شافعين ولا صديق حميم». وكان الحسن يقول[٩]:«إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، فإن أهلنا يذكروننا بالدنيا،وإخواننا يذكروننا بالآخرة.» وقال أبو الجراح العقيلي[١٠]:«وجدت أعراض الدنيا وذخائرها بعرض المتالف إلا ذخيرة الأدب وعقيلة الخلّة، فاستكثروا من الإخوان واستعصموا بعرى الأدب. وكان يقال: الرجل[١١] بلا إخوان كاليمين بلا شمال. وقال الشاعر[١٢]:

---

[٣] سورة الحجرات / ١٠.

[٤] سورة الأنفال / ٦٣.

[٥] البنا، أحمد عبد الرحمن: الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار الشهاب، القاهرة، (د.ت)، ج١٩، ص١٥٧.

[٦] مسند أحمد، ج٥، ص٣٢٢.

[٧] البنا، الفتح الرباني، ج١٩، ص١٥٧.

[٨] الغزالي: الإمام أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، القاهرة، دار الحديث، (د.ت)، ج٢، ص١٧٦.

[٩] المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٦.

[١٠] ابن قتيبة: عيون الأخبار، مج ٣، ج٧، ص٢.

[١١] المصدر نفسه، مج ٣، ج٧، ص٢.

[١٢] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٢.

www.mtenback.com

أَخَاكَ أَخَـاكَ إِنَّ مَـنْ لاَ أَخَـا لَـهُ كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَـا بِغَـيْرِ سِـلاَحِ
وَإِنَّ ابْنَ عَمِّ المَـرْءِ فَـاعْلَمْ جَنَاحُـهُ وَهَل يَنْهَضُ البَـازِي بِغَـيْرِ جَنَـاحِ

وكان عمر بن الخطاب يقول[١٣]: ما وجدنا شيئًا أبلغ في خير أو شر من صاحب. وقال خالد بن صفوان[١٤]: إن أعجز الناس من قصَّر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم. وقال علي، رضي الله عنه، لابنه الحسين[١٥]: يا بني، الغريب من ليس له حبيب. وقال ابن المعتز[١٦]: من اتخذ إخوانًا كانوا له أعوانًا. وقال بعض الأدباء[١٧]: أفضل الذخائر أخ وفيٌّ. وقال بعض البلغاء: صديق[١٨] مساعد عضد وساعد. وقال بعض الشعراء[١٩]:

هُمُومُ رِجَـالٍ فِـي أُمُـورٍ كَثِـيْرَةٍ وَهَمِّي مِنَ الدُّنْيَا صَدِيْـقٌ مُسَـاعِدُ
نَكُونُ كَرُوْحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ قُسِّـمَتْ فَجِسْمَاهُمَا جِسْمَانِ وَالرُّوْحُ وَاحِـدُ

وقالت الحكماء[٢٠]: من لم يرغب في ثلاث بلي بست: من لم يرغب في الإخوان بلي بالعداوة والخذلان، ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان

---

[١٣] المصدر نفسه، مج ٣، ج٧، ص٤.

[١٤] الماوردي: أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصري: أدب الدنيا والدين، بيروت، دار إحياء العلوم، (١٩٨٨م)، ص٢٤٢.

[١٥] المصدر نفسه، ص٢٤٢.

[١٦] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٤٢.

[١٧] المصدر نفسه، ص٢٤٢.

[١٨] المصدر نفسه، ص٢٤٢.

[١٩] المصدر نفسه، ص٢٤٢.

[٢٠] المصدر نفسه، ص٢٤٢.

www.mtenback.com

ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران. وقال أبو حاتم[٢١]: ليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غمٌ يعدل غمٌ فقدهم. وقال لبيد[٢٢]:

مَا عَاتَبَ الحُرَّ الكَرِيْمَ كَنَفْسِهِ وَالمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيْسُ الصَّالِحُ

وقيل لبعض الحكماء[٢٣]: ما أفضل ما يقتني المرء؟ فقال: الصديق المخلص. وقيل[٢٤]: أغبط الناس من لا يزال رحله من صالح الإخوان موطأ. وقال بعضهم[٢٥]: إن الأخ الصالح خير من نفسك، لأن النفس أمارة بالسوء،والأخ لا يأمرك إلا بالخير. وفي المثل[٢٦]: رب أخٍ لك لم تلده أمك. وقال لقمان لابنه[٢٧]: يا بني ليكن أول شيء تكسبه بعد الإيمان خليلاً صالحًا فإنما مثل الخليل كمثل النخلة،إن قعدت في ظلها أظلتك، وإن احتطبت من حطبها نفعك، وإن أكلت من ثمرها وجدته طيبًا.

وكثير من المقاصد الدينية لايستفاد إلا بمخالطة الناس ومعاشرتهم، فلا يعرف الرجل أن يتطهّر من الرياء ومن الغيبة والنميمة إلا وهو يعاشر الخلق ويمسك نفسه عن مقارفتها. وإن كثيراً من حوائج الدنيا لا تقضى إلا بالاستعانة بالآخرين. وكل ما يحصّل بالمخالطة والمعاشرة هو من فوائد الصحبة.

---

[٢١] أبو السعود عبد رب النبي علي: الأخوة الإسلامية، القاهرة، دار التوفيق النموذجية للطباعة، (١٩٩٠م)، ص١٢٩.

[٢٢] القاضي: الحديقة اليانعة، ج١، ص٢٨٤. ص١٢٩.

[٢٣] الأحيدب، عبد العزيز محمد: حكم وأدب من مآثر العرب، بيروت، (١٩٦٨م)، ج٢، ص٢٦٧.

[٢٤] المرجع نفسه، ج٢، ص٢٦٦.

[٢٥] المرجع نفسه، ج٢، ص٢٦٦.

[٢٦] الأحيدب: حكم وأدب، ص٢٦٦.

[٢٧] غالي، إلياس سعد: حديقة الصداقة والصديق في لزوميات أبي العلاء المعري، دمشق، (١٩٨٢م)، ص٤٦.

www.mtenback.com

ويورد الغزالي في الإحياء سبع فوائد للصحبة[٢٨]:

منها: التعلم الذي هو أساس تهذيب الإنسان، ولايتم إلا بالمخالطة والصحبة والاتصال بالناس والأخذ عن العلماء وأهل الفضل.

ولو لم يكن في مصاحبة الناس ومخالطتهم غير هذين الغرضين لوجبت الصحبة واستحقت الاهتمام والحفاظ.

وثانيها، الانتفاع والنفع؛ فأما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة. وذلك لا يكون إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة. وأما النفع فهو أن ينفع الناس بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بحوائج الناس ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة.

والثالثة منها التأدب والتأديب وهي الارتياض بمقاساة الناس و المجاهدة في تحمل أذاهم كسرًا للنفس وقهرًا للشهوات. وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه ولم تذعن لحدود الشرع شهواته. أما التأديب فيعني أن يهذب غيره وهو لا يقدر على ذلك إلا بالمخالطة.

ومنها: الاستئناس والإيناس، وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال. وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته، أو على وجه مباح، وقد يستحب ذلك لأمر الدين، وذلك فيمن نستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى. وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهيج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان ففي الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس يروح القلب فهي أولى.

---

[٢٨] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٣٦-٢٤١.

www.mtenback.com

ومنها: نيل الثواب وإنالته، أما النيل فبحضور الجنائز،وعيادة المريض،وقضاء الحاجات، وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور. وأما إنالته، فهو أن يفتح الباب ليعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنئوه على النعم، فإنهم ينالون بذلك ثوابًا.

ومنها: التواضع وهو أفضل المقامات ولا يُقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سببًا في اختيار العزلة.

ومنها: التجارب فإنها تُستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم. والعقل الغريزي ليس كافيًا في تفهُّم مصالح الدين والدنيا. وإنما تفيدها التجارب والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تمكّنه التجارب، فالصبي إذا اعتزل بقي غمرًا جاهلاً، لذلك ينبغي عليه أن يشتغل بالعلم وتحصيله وفيه سيجد خير التجارب ويكسب منه ما لم يكسب في الصحبة..

ورأى فريق ثالث أن الصحبة خير من العزلة وأنها هي التي تنمي تجارب الشباب بالقدوة والإسوة. بينما رأى فريق آخر أن العزلة بشروط دقيقة أنفع لصاحبها ولكل رأي سببه ومبرره.

قال ابن الجوزي[٢٩]: قد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة على الخلطة خصوصًا إن كان ممن انفتح له طريق عمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك الذي لا يعدل به البتة. ثم قال: العزلة فيها فوائد وغوائل، والحكم عليها مطلقًا من الخطأ، بل ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، فإن قدر على نفع الناس بماله أو بدنه لقضاء حوائجهم مع القيام

---

[٢٩] القاضي، محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان: الحديقة اليانعة والبروق اللامعة في تحرير أحكام الشريعة الساطعة، دار جيل للكتب العربية، بيروت، (١٩٨٤م)، ص٢٨٤.

www.mtenback.com

بحدود الشرع فإنه أفضل من العزلة، لأن العزلة نفعها قاصرٌ، وخلطة مثل هذا متعد للنفع، وقد قال رسول الله ﷺ«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٣٠].

قال الشافعي[٣١]: رضا الناس غاية لا تدرك، ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما فيه صلاح نفسك فالزمه ودع الناس وما هم فيه. وقال أيضًا[٣٢]: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط لهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين القبض والبسط. قال النووي[٣٣]: مذهب الشافعي وأكثر العلماء على أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن.

قال ابن تيمية[٣٤]: المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين ونحو ذلك مما أمر الله به ورسوله، وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي الغزو وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيمانًا، إما لانتفاعه به وإما لنفعه له ونحو ذلك. ولا بد للعبد من أوقات يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاوس:«نعم صومعة الرجل بيته يكفُّ فيها بصره ولسانه» وإما في غير بيته، فاختيار المخالطة مطلقًا خطأ، واختيار الانفراد

---

[٣٠] أخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب ٢٣، حديث ٤٠٣٢.

[٣١] القاضي: الحديقة اليانعة والبروق اللامعة في تحرير أحكام الشريعة الساطعة، ص٢٨٣.

[٣٢] المرجع نفسه، ص٢٨٣.

[٣٣] المرجع نفسه، ص٢٨٤.

[٣٤] قراعة، محمود علي: الأخلاق في الإسلام من أحاديث الرسول ومن فتاوي ابن تيمية، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص١٤٦.

www.mtenback.com

مطلقًا خطأ،وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا، وما هو الأصلح لـــه في كل حال، فهذا يحتاج إلى نظر خاص. قال الشاعر[٣٥]:

وَحْـــدَةُ الْإِنْسَـــانِ خَـــيْرٌ مِـــنْ جَلِيـــسِ السُّـــوءِ عِنْـــدَهْ
وَجَلِيـــسُ الخَـــيْرِ خَـــيْرٌ مِـــنْ قُعُـــودِ المَـــرْءِ وَحْـــدَهْ

ويميل الغزالي لتفضيل العزلة بشروط دقيقة، ولا يفوته أن ينبه إلى صعوبة توافرها. ومن شروطه هذه:«العلم والتجارب والاشتغال في العزلة بذكر الله ومعرفته، ومعرفـــة علوم الشرع، وأن يحصل للمعتزل أنس بمناجاة الله عن بصيرة، لا عن أوهام وخيـــالات فاسدة». ويجمل هذه الشروط في أن يتحقق بالعزلة ما يعلو قدره على قدر ما يتحقـــق بالصحبة وفق أحوال المعتزل.

جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال[٣٦]: إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وقد حدَّثت نفسي ألا أخالطهم، فقال وهب: لاتفعل، فإنه لا بد للناس منك، ولا بد لـــك منهم،لهم إليك حوائج، ولك إليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعًـــا، وأعمـــى بصيرًا، وسكوتًا نطوقًا.

قال عبد الله بن مسعود[٣٧]: خالطوا الناس وزايلوهم.

ضروب الصحبة:

صحبة الإنسان الإنسان:

وتتضمن صحبة الزوجين وصحبة الولد الوالد، وصحبة الوالد الولد، وصحبـــة الإخوان وصحبة العلم وصحبة السفر، ومقتضيات كل لون من ألوان الصحبة هذه.

---

[٣٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٥، ص٢٠٩..

[٣٦] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج ٣، ج٧، ص٢١.

[٣٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج ٣، ج٧، ص٢١.

www.mtenback.com

وصحبة الإنسان للإنسان هي أصل الصحبة، إلا أن الإنسان قد يصحب الحيوان والشيء، وصحبة الإنسان الإنسان ومقتضياتها من حقوق وآداب هي عمود بحثنا هذا، إلا أننا سنتحدث عن أصناف الصحبة الأخرى في شيء من الإيجاز.

فقد فطر الله النفس الإنسانية على الميل إلى الصحبة واتخاذ الإخوان، وما يقع لها من ميل إلى العزلة هو من باب لجمها وتأديبها لأسباب يراها المعتزل. والنفس إما سمحة هينة لينة، وإما نكدة عسيرة، وبين كلا طرفي النقيض درجات.

والمعاشرة تشمل النفسين كلتيهما. وفي عموم أدب العرب أن النفس تميل إلى شبيهها، جاء في الحديث:«الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[٣٨]. وقيل:«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٣٩]، وعلى ذلك قول الشاعر[٤٠]:

أَبِنْ لِي فَكُنْ مِثْلِي أَوْ ابْتَغِ صَاحِبًا كَمِثْلِكَ إِنِّي مُبْتَغٍ صَاحِبًا مِثْلِي

وقال بعض الشعراء [٤١]:

عَنِ المَرْءِ لاَ تَسْأَل وَسَل عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنَ مُقْتَدِ

والنفس السمحة الهينة اللينة يفوز صاحبها بخيري الدنيا والآخرة. فهو في الدنيا حائز رضا جلِّ الناس ومحبتهم وميلهم إليه، قاضٍ حوائجه في يسر وتمام، فائز بصحبة الأخيار واحترام العامة، وهو في الآخرة حائز رضا الله ما ابتغى بسماحته وجهه الكريم.

---

[٣٨] الهاشمي، مختار الأحاديث النبوية، ص٨١.

[٣٩] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٣١/ ٢٦٣٨.

[٤٠] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٧..

[٤١] السلمي، أبو عبد الرحمن الحسين بن محمد بن أبي موسى: آداب الصحبة، طنطا، دار الصحابة للتراث، (١٩٩٠م)، ص٤٢.

www.mtenback.com

أما صاحب النفس النكدة فتجده يتسخط ليل نهار. لا ترى عينه غير الخراب، كليلة عن مناظر الجمال، لا يسمع إلا أنكر الأصوات، ولا يتذوق غير المر. ولذا ينفر منه الأصحاب ولا يجد إلا من يشاطره التشاؤم وضيق الصدر فيصطحبان، ثم لا يلبثان حتى يضيق أحدهما بالآخر فيفترقا. ولذا فإنه يجد حياته عسيرة عسر نفسه،ضيقة ضيق صدره.

وصاحب النفس السمحة والخلق الحسن ودود، لطيف اللسان، طلق الوجه بشوش في وجوه الناس رفيق بهم، يتغاضي عن زلاتهم، ولا يظن بكلامهم شراً وهو يجد له في الخير محملاً. ييأسرهم ويداريهم، فهو يعلم ألا مبرأ من سهو أو زلل، ولا سليم من نقص أو خلل. يتبسم في وجوههم وينذر نفسه لقضاء حوائجهم، ولذا فإنه ألف مألوف مصاحب مصحوب، يحرص على أداء حقوق الصحبة ويستمسك بآدابها، فينال من الأصحاب أفضل مما يعطيهم.

وحسن العشرة مجلبة للألفة، والألفة مجلبة للصحبة والمودة، ويُتوسل لحسن العشرة بسماحة النفس وحسن الخلق ولين الجانب ولطف اللسان.

وتتفاوت درجات الصحبة وحقوق بعضها آكد من بعض. فهناك صحبة الزوجين، وصحبة الولد الوالدين،و صحبة الوالدين الولد، وصحبة العلم وصحبة المكتب والسفر والعمل.

وتطلق على الرجل ألفاظ صاحب أو خليل أو خدن أو صديق أوحبيب بقدر ما يقع له في القلب من المحبة، وبقدر درجة الملازمة. قال الغزالي[٤٢]:«وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة، فإن ازدادت صارت محبة، فإن ازدادت صارت خُلَّة، والخليل أقرب من الحبيب، فالمحبة ما تتمكن من حبة القلب، والخلة ما تتخلل سر

[٤٢] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٩٣.

www.mtenback.com

القلب، فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلاً، وتتفاوت درجات الصداقة بحكم المشاهدة والتجربة، فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخُلّة تعبير عن حالة هي أتم من الأخوة، وتعرفه من قوله ﷺ: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً وإن صاحبكم خليل الله»[٤٣].

صحبة الزوجين:

لاتستمر صحبة كما تستمر صحبة الزوجين إذا صلح مابينهما ودام التوافق وعاشا معًا حتى لقد فسر بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[٤٤]، على أنه الزوجة. ووردت كلمة الصاحبة بمعنى الزوجة في القرآن الكريم في أربعة مواضع. وتسمّي العرب الزوج العشير.

وجاء في الحديث:«... وتكفرن العشير» بمعنى الزوج. وهذه صحبة تحظى في أدب الإسلام بنصيب وافر من آيات القرآن والأحاديث وأقوال الفقهاء والعلماء، بيد أننا لا نكاد نقع على شيء من الأقوال في هذه الصحبة في أدب الجاهلية. وهو أمر أسبابه معلومة.

يتوزع الخطاب في الإسلام بين ما هو موجه للزوج في إحسان عشرته لزوجته، وبين ما هو موجه للزوجة في إحسان عشرتها لزوجها. وللرجل قدرة على احتمال الأذى تفوق قدرة المرأة، كما يملك الرجل الحق الشرعي في تأديبها. وهو غالبًا ما يملك حق المفارقة بالتطليق إن هو ضاق بسوء عشرتها و لم يُجدِ نفعًا ما قدّمه من وعظ وهجر.

---

[٤٣] الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ج٥، ص٣٠٢/٣٥٨.

[٤٤] سورة النساء: ٣٦.

www.mtenback.com

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٤٥]. وفي الحديث:«استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرًا»[٤٦].

وإذا كانت هذه طبيعة المرأة في فطرتها فالرجل العاقل هو من يحاول التأديب والتهذيب فيما يمكن أن يُقوّم، وأما ما يستعصي ويؤدي إلى الكسر فإنه يتجنبه. ولابد له من احتمال قدر من الأذى.

ولعل ما يدل على أن هذا فعل العقلاء وخيار الرجال ما في حديث:«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»[٤٧]. ذلك أن الرجل في أهله منطلق على سجيته، متحرر من المجاملة والتصنع الذين يلتزمهما خارج بيته ليجلبا إليه حسن السمعة ورفعة المكانة وأصدق ما تكون أخلاقه في أهله.

ولا تتعطل فضيلة حسن عشرة الزوجة بكراهتها، أو انطفاء جذوة حب الرجل لها. قال تعالى:﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٤٨] ذلك أن الحب والاستلطاف قد ينبيان عن جمال الوجه، أو رشاقة الجسد، أو عذوبة المنطق، وما إليه مما تميل إليه النفس ويستظرفه الذوق.

وربما فقدت الزوجة كل هذا واحتفظت بقوة دين، وعفة وصيانة وحسن خلق وأمانة وإعانة على السراء والضراء. ولا يزال الرجل العاقل هو من يرى بثاقب بصيرته في المرأة ما يعمى عنه الذوق ولا تدركه الحواس. وما دامت المرأة لا تخلو من عوج هو

---

[٤٥] سورة النساء: ١٩.

[٤٦] مسلم، صحيح مسلم، ج٢، ص١٠٩١/١٤٦٨.

[٤٧] المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٩١/١٤٦٩.

[٤٨] سورة النساء: ١٩.

www.mtenback.com

من جوهر فطرتها، على تفاوت في الدرجة بين إحداهن وأخرى، فله أن يرضى منها جوانب حسنة إن ساءته جوانب أخرى، جاء في الحديث:«لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»[٤٩].

وقال عمر لرجل همَّ بطلاق امرأته[٥٠]: لم تطلقها؟ قال لا أحبها، قال: أو كل البيوت بنيت على الحب! وأين الرعاية والتذمم؟!. وقال الحسن[٥١]: المؤمن لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب. وقال بعض الحكماء[٥٢]: ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدًا.

ويتمثل حسن عشرة الزوجة في الرفق بها والصبر على أذاها وترك الانتقام للنفس بردّ الأذى. وإن كان الرفق واجبًا في معاملة الرجل للآخرين عمومًا فإنه في حق المرأة أوجب. وكان النبي ﷺ في بعض أسفاره وغلام يحدو يقال له أنجشة، فقال له رسول الله ﷺ:«رويدك سوقًا بالقوارير»[٥٣] (يعني ارفق بالنساء لضعفهن وأبطئ السير) وقال ﷺ:«يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، ومالا يعطي على ما سواه»[٥٤].

ومن حسن عشرة الزوجة الإنفاق عليها بالمعروف، فإن كان الرجل ذا ميسرة فلا يكون إنفاقه عليها بإسراف يطغيها، كما لا يكون في تقتير يسخطها. والزوجة قطعًا من الأقربين الذين هم أولى بالمعروف في كتاب الله. قال بعض الشعراء[٥٥]:

---

[٤٩] مسلم، صحيح مسلم، ج٢، ص١٠٩١.

[٥٠] ابن قتيبة، عيون الأخبار ج٧، ص١٣.

[٥١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٧ ص١٣

[٥٢] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٣.

[٥٣] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص١٨١١/٢٣٢٣.

[٥٤] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٠٣/٢٥٩٣.

[٥٥] ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد، القاهرة، دار الكتاب العربي، (١٩٤٩م)، ج٢ ص٣٢٤.

www.mtenback.com

حَقٌّ عَلَـــى السَّـــيِّدِ المَرْجُـــوِّ نَائِلُـــهُ وَالْمُسْتَجارُ بِهِ فِي العُـــرْبِ وَالعَجَـــمِ
أَلاَّ يُنِيلَ الْأَقَـــاصِي صَـــوْبَ رَاحَتِـــهِ حَتَّى يَخُصَّ بِهِ الْأَدْنَى مِـــنَ الخَـــدَمِ
إِنَّ الفُـــرَاتَ إِذا جَاشَـــتْ غَوَارِبُـــهِ رَوَّى السَّواحِلَ ثُمَّ امْتَدَّ فِي الأُمَـــمِ

ومن حسن عشرة الرجل زوجته أن يتلطف معها ويداعبها ويســـاعدها علـــى تذليل أعمال البيت ومسؤولية تربية الأبناء.

للزوج على الزوجة إحسان عشرته كذلك. وأول مقتضيات ذلك طاعته فيمـــا لا معصية فيه، والسعي الحثيث في نيل رضائه.

والقول الجامع في إحسان المرأة عشرة زوجها أن تكون حافظـــة لزوجهـــا في نفسها وماله، متحببة إليه متلطفة، تحاذر التكدير والأذى والكفران.

قال رجل لزوجته[٥٦]:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِـــي وَلاَ تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِيْنَ أَغْضَـــبُ
وَلاَ تَنْقُرِيْنِـــي نَقْـــرَكِ الـــدِّفَّ مَـــرَّةً فَـــإِنَّكِ لاَ تَدْرِيْـــنَ كَيْـــفَ المَغَيَّـــبُ
وَلاَ تُكْثِرِي الشَّكْوَى فَتَذْهَبَ بِـــالْهَوَى وَيَأْبَـــاكِ قَلبِـــي وَالقُلُـــوبُ تَقَلَّـــبُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الحُبَّ فِي القَلْـــبِ وَالْأَذَى إِذا اجْتَمَعَا لَمْ يَلبَثِ الحُـــبُّ يَذْهَـــبُ

صحبة الولد الوالدين:

إن علاقتي الأبوة والبنوة من العلاقات التي تستلزم الصحبة والملازمـــة وحســـن العشرة، ولا سيما عندما يبلغ الولد مبلغ الرجال. تقول العرب (أصحب الرجـــل) إذا بلغ ابنه مبلغ الرجال فصار مثله فكأنه صاحبه. ويقول تبارك وتعالى في معرض بيـــان حق الوالدين على الولد من البر وإحسان العشرة: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٥٧]

---

[٥٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢ ص٥٨.

[٥٧] سورة لقمان: ١٥ .

www.mtenback.com

وهذا في حق الوالدين يجاهدان ابنهما على أن يشرك بالله شيئًا. فلم ينزع منهما إلا حق الطاعة في هذا مع وجوب إحسان العشرة وإحقاق الصحبة حقها من المعروف. وفي الحديث:«جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك»[٥٨] وأوجز ذلك في قوله:«لا يجزي ولد والدًا حتى يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»[٥٩].

يقتضي حفظ صحبة الوالدين أول ما يقتضي برهما، وللعرب آثار مروية تتحدث عن درجات من بر الوالدين عظيمة. قيل لعلي بن الحسين[٦٠]: أنت من أبر الناس، ولا نراك تؤاكل أمك؟! قال: أخاف أن تسير يدي إلى ما قد سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها. وقيل لعمر بن ذر[٦١]: كيف كان بر ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهارًا قط إلا مشى خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى سطحًا وأنا تحته.

ومن بر الوالدين بعد الممات الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وحسن العهد فيمن كانا يحبان في حياتهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما.

وفي الحديث:«إن من أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه»[٦٢].

---

[٥٨] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (د.ت) ج٢١، ص ٥٦٠١/١٤٧.

[٥٩] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (١٩٧٥م)، ط٢، ج٤، ص١٩٠٦/٣١٥.

[٦٠] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج ٣،ج٧، ص٩٧.

[٦١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧ ، ص٩٧.

[٦٢] الترمذي، الجامع الصحيح، ج٤، ص١٩٠٦/٣١٣.

www.mtenback.com

صحبة الوالدين الولد:

تبدأ صحبة الوالدين الولد وحسن عشرته بالفرح والاستبشار بمولده ويؤذن في أذنه ويذبح عنه عقيقة يوم السابع أو الرابع عشر، أو الحادي والعشرين ويحسن اسمه، ثم يحسن تربيته ويعلمه ويرفق به ويرحمه. وفي الحديث:«إن من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة وأن يحسن اسمه وأن يزوجه إذا بلغ»[٦٣].

وأول مراتب حسن عشرة الولد شكر الله على نعمة ولادته ودعوته أن يبارك فيه. قال رجل للحسن يهنئه بمولود[٦٤]: ليهنئك الفارس، قال: قل: شكرتَ الواهب، وبارك لك في الموهوب، وبلغ أشده، ورزقت بره. ثم يكون بعد ذلك الفرح به والاستبشار وحبه ومداعبته وتقبيله ورحمته. قالت أعرابية[٦٥]:

يَا حَبَّذا رِيْحُ الوَلَدْ رِيْحُ الخُزَامَى بِالبَلَدْ

وقال أعشي سليم[٦٦]:

نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ وَافِدٍ إِذَا مَا البُيُوتُ لَبِسْنَ الجَلِيْدَا
كُفِيْتُ الَّذِي كُنْتُ أَرجِي لَهُ فَصِرْتَ أَبًا لِي وَصِرْتُ الوَلِيدَا

وقيل لبعضهم[٦٧]: أي ولدك أحب إليك؟ فقال صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم. وقال الزبير وهو يرقص ابنًا له.

أَبْيَضُ[٦٨] مِنْ آلِ أَبِي عَتِيقِ مُبَارَكٌ مِنْ وَلَدِ الصِّدِّيقِ

---

[٦٣] رواه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ آخر، ج٦، ص٤٠١.

[٦٤] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٦٨.

[٦٥] ابن قتيبة،المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٩٤

[٦٦] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٩٤

[٦٧] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٦٢.

[٦٨] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٩٥.

www.mtenback.com

أَلَـــذُّهُ كَمَـــا أَلَـــذُّ رِيْقِـــي

ورقص أعرابي ابنه فقال[٦٩]:

أُحِبُّـــهُ حُـــبَّ الشَّـــحِيْحِ مَالَـــهُ قَـــدْ كَـــانَ ذَاقَ الفَقْـــرَ ثُـــمَّ نَالَـــهْ

إِذَا يُرِيْـــدُ بَذْلَـــهُ بَـــدَا لَـــه

قال يزيد بن معاوية[٧٠]: أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل قال له: يا أبا بحر ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك، ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت علي وأنا مملوء غضبًا وغيظًا على يزيد. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب، فقاسمه إياها على الشطر.

ومن إحسان عشرة الولد الإنفاق عليه في قوته وملبسه ومركبه في توسط دون الإسراف وفوق التقتير، فالإسراف يطغيه ويفسده، والتقتير يسخطه ويغمه. وربما يدخل في النفقة عليه تزويجه إذا بلغ. وفي الحديث:«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»[٧١].

وقد أحب بعض العرب من الولد البنات وشغف بهن وأكرمهن ولا سيما بعد الإسلام، لما رأوه من حب رسول الله ﷺ لبناته، ولما قال ﷺ في إكرام البنات وإحسان

---

[٦٩] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٩٩.

[٧٠] الغزالي ، إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢١٨.

[٧١] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٦٩١/٩٩٤.

www.mtenback.com

تربيتهن. وكان ﷺ يكرم بناته، فإذا دخلت عليه فاطمة قام لها وقبلها وأجلسها على يمينه، وربما بسط لها ثوبه. وكان يحب أولادها الحسن والحسين. وأحب ابنة بنته زينب أمامة بنت أبي العاص بن الربيع. وكان يحزن لحزنهن، وقد صرّح بأن ما يؤذي بنته يؤذيه. وكان يرعاهن حتى بعد زواجهن فيخلف أزواجهن فيهن إذا ما خرجوا في سفر أو غيره. وقال:«من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو»[٧٢] وضم أصابعه. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة، فقال[٧٣]: من هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه تفاحة القلب، فقال: انبذها عنك، قال: و لم؟ قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقرّبن البعداء، ويورثن الضغائن، فقال: لا تقل ذاك يا عمرو، فوالله ما مرّض المرضى و لاندب الموتى ولا أعان على الأحزان مثلهن، وإنك واجد خالاً نفعه بنو أخته، فقال له عمرو: ما أعلمك إلا حببتهن إلي. وقال أعرابي[٧٤]:

لَوْلا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ القَطَا ... حُطِطْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضِ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ ... فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا ... أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِم ... لَا مْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الغَمْضِ

ارتبط حب البنات عند العرب بالخوف عليهن من غِيَر الدهر وتبدُّل الأحوال إذا قضى الآباء، وذلك لضعفهن وقلة حيلتهن في تدبير العيش الكريم. ولعل من أغرب المعاني التي وردت في شعرهم أنهم كانوا يتمنون موت البنت في ظل حياة أبيها، وألا يسبق أجله أجلها. قال بعض الشعراء[٧٥].

---

[٧٢] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٢١/٢٦٣١.

[٧٣] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣،ج٧، ص٩٩.

[٧٤] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٩٥.

[٧٥] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٩٧.

www.mtenback.com

لَقَدْ زَادَ الحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّا ... بَنَاتِي إِنَّهُنَّ مِنَ الضِّعَافِ
مَخَافَةَ أَنْ يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِي ... وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافِي
وَأَنْ يَعْرَيْنَ إِنْ كُسِيَ الجَوَارِي ... فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ

وقال الشاعر[٧٦]:

لَوَلا أُمَيْمَةُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ العَدَمِ ... وَلَمْ أُجِبْ فِي اللَّيَالِي حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي العَيْشِ مَعْرِفَتِي ... ذُلَّ اليَتِيمَةِ يَجْفُوهَا ذَوُو الرَّحِمِ
أُحَاذِرُ الفَقْرَ يَوْمًا أَنْ يُلِمَّ بِهَا ... فَيَهْتِكَ السِّتْرَ مِنْ لَحْمٍ عَلَى وَ ضَمِ
تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا ... وَالمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَّالٍ عَلَى الحُرَمِ

وأنشد ابن الأعرابي[٧٧]:

أُحِبُّ بُنَيَّتِي وَوَدِدْتُ أَنِّي ... دَفَنْتُ بُنَيَّتِي فِي قَعْرِ لَحْدِ
وَمَا بِي أَنْ تَهُونَ عَلَيَّ لَكِنْ ... مَخَافَةَ أَنْ تَذُوقَ البُؤْسَ بَعْدِي

صحبة الخادم:

الخادم هو من يعمل عندك مستأجراً وهو حقيق بالصحبة الحسنة والعشرة الطيبة. وفي الحديث: «هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون»[٧٨].

ولقد كانت بعض العرب تضرب خدمها وتسيء صحبتها، بينما كان لبعضها الآخر مواقف كريمة تجاه هفوات خدمها. قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟

---

[٧٦] ابن قتيبة: عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٩٤.

[٧٧] المصدر السابق، مج٣، ج٧، ص٩٣.

[٧٨] العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر والنشر والتوزيع، (د.ت)، ج٥، ص١٧٤ /٢٥٤٥.

www.mtenback.com

قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادم له بسفُودٍ عليه شواء، فسقط من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك[٧٩].

وحق الخادم على سيده هو حق الصحبة والإحسان إذ إنه يشاركه المأوى، ويلازمه في الحل والترحال، ويقوم عليه بالخدمة والحراسة، وسائر ما يكلفه الخادم.

ومن حسن عشرة الخادم ولين الجانب في معاملته إشعاره بالطمأنينة وهو يأتي أعماله، فإنه لا بد متلف شيئًا من متاع البيت وهو يؤدي أعماله المعتادة. فلا يقابل صاحب البيت أو صاحبته ذلك باللوم والزجر والإهانة. عن أنسٍ رضي الله عنه قال:«خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟»[٨٠].

يقول الإمام الغزالي[٨١]: «فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته، ولا يكلفه فوق طاقته، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته، ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنايته في معاصيه وجنايته بحق الله تعالى في طاعته، مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته».

اختيار الأصحاب:

اختيار الأصحاب وانتقاء الأخلاء يقتضي الفطنة والنظر الثاقب في اختيارهم، فليس كل من تطبع ذا طبع. واصطناع الخلق توسلاً لحسن السيرة وعلو المكانة أمر مألوف في ابن آدم من الزمان القديم، أينما أقام وخالط من حوله. ولذا لزم سبر أحوال

---

[٧٩] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٢٠.

[٨٠] الترمذي، الجامع الصحيح، ج٤، ص٢٠١٥/٣٦٨.

[٨١] الغزالي: إحياء عيون الدين، ج٢، ص٢٢١.

www.mtenback.com

الأصحاب قبل اختيارهم، وامتحان أخلاقهم قبل اصطفائهم. إن الباعث على اتخاذ الأصحاب حاجة إلى أخٍ تركن إليه النفس، ويستعان به في شؤون الدنيا والدين. ولكي يكون كذلك فلا بد له من أن يكون متحليًا بالفضائل، متسمًا بالجمائل طبعًا لا تكلفًا. فصار لازمًا الكشف عن المدلسين، والاحتراز من ذوي الريب.

وقد أفاضت العرب شعرًا ونثرًا وهي تدعو للتثبت ومداومة الابتلاء في أحوال من ترغب النفس في استصحابه، فأبان الشعراء والكتاب حقيقة اختلاف معادن الناس، ووجوب أن يكون حظ العاقل النفائس منهم، وأن يختار أفضل من يعلم فهم مختلفون متباينون مثل اختلاف الطبيعة وتباينها وقد قال بعض الشعراء في هذا المعنى[٨٢]:

النَّاسُ كَالأَرْضِ وَمِنْهَا هُمُ ... فَمِنْ خَشِنِ الطَّبْعِ وَمِنْ لَيِّنِ

فَجَنْدَلٌ تَدْمَى بِهِ أَرْجُلٌ ... وَإِثْمِدٌ يُوْضَعُ فِي الْأَعْيُنِ

وقال بعض الأدباء[٨٣]: لا تثق بالصديق قبل الخبرة، ولا تقع بالعدو قبل القدرة. وصدق رسول الله في تشبيه الصاحب بقوله:«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير،فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة»[٨٤]. وقال أبو حاتم[٨٥]: اللبيب لا يؤاخي إلا ذا فضل في الرأي والدين والعلم والأخلاق الحسنة، وذا عقل نشأ مع الصالحين. وقال علقمة بن لبيد العطاردي يا بني، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى فيك حسنة

---

[٨٢] الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق، دار القلم، ج٢، ص٤٤٦.

[٨٣] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ج٤، ص٢٤٩.

[٨٤] مسلم: صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٢٦.

[٨٥] أبو السعود: الأخوة الإسلامية، ص١٢٩.

www.mtenback.com

عدها، وإن رأى سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتـــداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمـــرك، وإن تنازعتما آثرك.

ويروى عن المأمون أنه قال[٨٦]: الإخوان ثلاث طبقات، طبقـــة كـــالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا أحيانًا، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدًا.

وفي هذا المعنى قال حجية بن المُضرب[٨٧]:

أَخُـــوكَ الَّـــذِي إِنْ تَدعُـــهُ لِمُلِمَّـــةٍ ... يُجِبْكَ وَإِنْ تَغْضَبْ إِلَى السَّيْفِ يَغْضَبِ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٨٨]:

أَخُوك الَّذِي إِنْ أَحْوَجَتْـــكَ مُلِمَّـــةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَبْرَحْ لَهَا الدَّهْرَ وَاجِمَا

وَلَيْسَ أَخُوكَ الحَقُّ مَـــنْ إِنْ تَشَـــعَّبَتْ ... عَلَيْكَ أُمُورٌ ظَـــلَّ يَلْحَـــاكَ لاَئِمَـــا

وقال العتابي[٨٩]:

تَـــوَدُّ عَـــدُوِّي ثُـــمَّ تَزْعُـــمُ أَنَّنِـــي ... صَدِيْقُكَ إِنَّ الرَّأْيَ عَنْـــكَ لَعَـــازِبُ

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّنِـــي رَأْيَ عَيْنِـــهِ ... وَلَكِنْ أَخِي مَـــنْ صَدَّقَتْـــهُ المَغَـــايِبُ

وقال الأحنف بن قيس[٩٠]: خير الإخوان من إن استغنيت عنـــه لم يـــزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن عـــثرت عَضَـــدَكَ، وإن احتجـــت إلى مؤونته رَفَدَكَ. وقال شاعر[٩١]:

---

[٨٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٤٩.

[٨٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٥.

[٨٨] ابن قتيبة، عيون الأخبار ، مج٣، ج٢، ص٥.

[٨٩] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٦.

[٩٠] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٤.

[٩١] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٤.

www.mtenback.com

إِنَّ أَخَاكَ الصِّدْقَ مَنْ لَنْ يَخْدَعَكْ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إِذا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكْ
وَإِن رَآكَ ظَالِمًا سَعَى مَعَكْ

ومن جملة الشروط التي اشترطوها في الصاحب العقل الموفور. قيل: ثق بذي العقل والكرم واطمئن إليه، وواصل العاقل غير ذي الكرم، واحترس من سيئ أخلاقه، وانتفع بعقله، وواصل الكريم غير ذي العقل، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، واهرب من اللئيم الأحمق. قال بعض الشعراء[٩٢]:

إِذَا مَا كُنْتَ مُتَّخِذًا خَلِيلاً فَلاَ تَثِقَنَّ بِكُلِّ أَخِي إِخَاءِ
فَإِنْ خُيِّرْتَ بَيْنَ النَّاسِ فَالصَقْ بِأَهْلِ العَقْلِ مِنْهُمْ وَالحَيَاءِ

وقال بعض الحكماء[٩٣]: عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق، لأن الأحمق ربما ضر وهو يَقْدرُ أن ينفع. والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرته، فمضرته لها حد يقف عليه العقل، ومضرة الجاهل ليست بذات حد، والمحدود أقل ضرراً مما هو غير محدود. وقال علي بن أبي طالب[٩٤]:

فَلاَ تَصْحَبْ أَخَا الجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيمًا حِيْنَ آخَاهُ
يُقَاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ إِذَا مَا المَرْءُ مَاشَاهُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلقَلْبِ عَلَى القَلْبِ دَلِيلٌ حِيْنَ يَلقَاهُ

(٩٢) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٠.
(٩٣) المصدر نفسه، ص٢٥٠.
(٩٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٧، ص١٧١.

www.mtenback.com

وقال بعض البلغاء[٩٥]: من الجهل صحبة ذوي الجهل، ومن المُحال مجادلة ذوي المحَال (ذوي المكر والدهاء). وقال أبو العتاهية[٩٦]:

احْـذَرِ الأَحْمَـقَ واحـذر ودَّهُ ... إنَّمـا الأحْمَـقُ كَـالثَّوْبِ الخَلَـقْ

كُلَّمَـا رقَّعْتَـهُ مِـنْ جَـانبٍ ... زَعْزَعَتْـهُ الرِّيْـحُ يَوْمًـا فَـانْخَرَقْ

أَوْ كَصَـدْعٍ فِـي زُجَـاجٍ فَـاحِشٍ ... هَل تَرَى صَـدْعَ زُجَـاجٍ يَلتَصِـقْ

فَـإِذَا عَاتَبْتَـهُ كَـيْ يَرْعَـوِي ... زَادَ شَـرًّا وَتَمَـادَى فِي الخُمُـقْ

ومدحت العرب الصاحب البذال السخي، يتهلل وجهه ويعطي في غير منّ ولا أذى. يقضي الحاجات صائنًا ماء الوجه. يتصدر لقاء الحادثات دون أصحابه فيكفيهم مؤونتها وغوائلها.

قال شاعر يبكي أخًا له[٩٧]:

أَبْكِـي أَخًـا يَتَلَقَّـانِي بِنَائِلِـهِ ... قَبْلَ السُّؤَالِ وَيَلقَى السَّيْفَ مِنْ دُونِي

إِنَّ المَنَايَـا أَصَـابَتْنِي مَصَائِبُهَـا ... فَاسْتَعْجَلَتْ بِأَخٍ قَدْ كَـانَ يَكْفِيْنِي

وقال أعرابي[٩٨]:

أَخٌ لَـكَ مَـا تَـرَاهُ الدَّهْـرَ إِلاَّ ... عَلَـى العِـلاَّتِ بَسَّـامًا جَـوَادًا

سَـأَلْنَاهُ الجَزِيْـلَ فَمَـا تَلَكَّـا ... وَأَعْطَـى فَـوْقَ مُنْيَتِنَـا وَزَادَا

فَأَحْسَنَ ثُـمَّ أَحْسَـنَ ثُـمَّ عُدْنَـا ... فَأَحْسَـنَ ثُـمَّ عُـدْتُ لَـهُ فَعَـادَا

---

[٩٥] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٠.

[٩٦] أبن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٢٠٠.

[٩٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج ٣، ج٧ ، ص٥.

[٩٨] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٦.

www.mtenback.com

مِـــرَارًا لاَ أَعُـــودُ إِلَيْـــــهِ إِلاَّ تَبَسَّـــمَ ضَاحِكًـــا وَثَنَـــى الوِسَـــادا

وقال رجل في أخ له[٩٩]:

وَكُنْـــتُ إِذا الشَّـــدَائِدُ أَرْهَقَتْـــنِي يَقُـــومُ لَهَـــا وَأَقْعُـــــدُ لاَ أَقُـــومُ

وقال شاعر[١٠٠]:

خَلِيلٌ إِذا مَا جِئْـــتُ أَبْغِيْـــهِ حَاجَـــةً رَجَعْتُ بِمَا أَبْغِـــي وَوَجْهِـــي بِمَائِـــهِ

بَلَـــوْتُ رِجَـــالاً بَعْـــدَهُ فِي إِخَـــائِهِمْ فَمَا ازْدَدْتُ إِلاَّ رَغْبَـــةً فِـــي إِخَائِـــهِ

ثمة أمر آخر شغل حيزًا واسعًا في موضوع الصحبة في آثار العرب. ذلكم هو أمر تشاكل الأصحاب وتشابههم وهذه حالة لا تكون الصحبة فيها اختياراً محضًا، تُعمـــل فيه أدوات العقل من تمحيص وامتحان واستيثاق، بل هو ميل خفي تستحكم فيه المودة بين شخصين، وينجذب فيه كل منهما إلى الآخر. وقد يكون ذلك بلا حسن خلق ولا ملاحة ولا مسوغ مقبول. غير أن من حكم العرب (شَبيهُ الشيء منجذب إليه). وأصدق ما أثر في ذلك حديث:« الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[١٠١] وكان مالك بن دينـــار يقول[١٠٢]: لا يتفق اثنـــان في عشـــرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعـــان مـــن الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة، قال: فرأى يومًا غرابًا مع حمامة، فعجب من ذلك فقال: اتفقا وليس من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا.

قال شاعر[١٠٣]:

---

[٩٩] المصدر نفسه، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٦.

[١٠٠] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: ديوان المعـــاني، مكتبـــة القدســـي، القـــاهرة، (١٣٥٢هـــ)، ج١، ص١٩٤.

[١٠١] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٣١/٢٦٣٨.

[١٠٢] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٦٢.

[١٠٣] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٤٤.

www.mtenback.com

لاَ تَحْتَقِرْ نَفْسِـــي وَأَنْـــتَ خَلِيْلُهَـــا فَكُلُّ امْرِىءٍ يَصْبُو إِلَى مَنْ يُشَـــاكِلُ

وقال آخر[١٠٤]:

فَقُلتُ: أَخِي، قَالُوا أَخٌ مِـــنْ قَرَابَـــةٍ فَقُلتُ لَهُمْ: إِنَّ الشَّـــكُولَ أَقَـــارِبُ

نَسِيْبِيَ فِي رَأْيِي وَعَزْمِـــي وَهِمَّتِـــي وَإِنَّ فَرَّقَتْنا فِي الْأُصُـــولِ الْمُنَاسِـــبِ

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[١٠٥]: ما من شيء أدل على شـــيء، ولا الدخان على النار، من الصاحب على الصاحب. وقال شاعر[١٠٦]:

إِنْ كُنْـــتَ تَبْغِـــي المَـــرْءَ أَوْ أَصْلَـــهُ وَشَـــاهِدًا يُخْـــبِرُ عَـــنْ غَـــائِبِ

فَـــاعْتَبِرِ الْأَرْضَ بِأَشْـــــبَاهِهَا وَاعْتَـــبِرِ الصَّـــاحِبَ بِالصَّـــاحِبِ

وقال الطائي[١٠٧]:

ذُوْ الوُدِّ مِنِّي وَذُوْ القُرْبَـــي بِمَنْزِلَـــةٍ وَإِخْوَتِي أُسْـــوَةٌ عِنْـــدِي وَإِخْوَانِـــي

عِصَابَـــةٌ جَـــاوَرَتْ آدَابُهُـــم أَدَبِـــي فَهُم وَإِنْ فُرِّقُوا فِي الأَرْضِ جِـــيْرَانِي

أَرْوَاحُنَا فِي مَكَانٍ وَاحِـــدٍ وَغَـــدَتْ أَبْدَانُنَـــا بِشَـــآمٍ أَوْ خُرَاسَـــانِ

حدا بهم هذا اليقين القاطع بتشاكل الأصحاب إلى وســـم الرجـــل بســـيماء صاحبه، ونسبة أفاعيله إليه، ولا يخفى أن هذا الأمر ينطوي على محاولة عـــلاج خلـــل الأخلاق بالتشهير، ومراجعة سيئ الخلق بضرب العزلة عليه، وإيقاع الوحشة به، علـــه يرتدع. قال بعض الأدباء[١٠٨]: يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقرينه. وقال عدي بن زيد:

---

[١٠٤] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٤٤.

[١٠٥] المصدر نفسه ، ص٢٤٨.

[١٠٦] المصدر نفسه، ص٢٠٤.

[١٠٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٧.

[١٠٨] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٤٨.

www.mtenback.com

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ ... وَلاَ تصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

وقال بعض الشعراء[١٠٩]:

مُجَالَسَةُ السَّفِيهِ سَفَاهُ رَأْيٍ ... وَمِنْ عَقْلٍ مُجَالَسَةُ الحَكِيْمِ

فَإِنَّكَ وَالقَرِيَنَ مَعًا سَوَاءٌ ... كَمَا قُدَّ الأَدِيْمُ مِنْ الأَدِيْمِ

وقال شاعر صحب رجلاً، و لم تتشاكل حالاهما فافترقا[١١٠]:

وَقَائِلٍ كَيْفَ تَفَارَقْتُمَا ... فَقُلْتُ قَوْلاً فِيْهِ إِنْصَافُ

لَمْ يَكُ مِنْ شَكْلِي فَفَارَقْتُهُ ... وَالنَّاسُ أَشْكَالٌ وآلافُ

وللعرب في اتخاذ الأصحاب مذهبان: منهم من رأى الإكثار أولى، ومنهم من رأى الإقلال أولى. وفي كثرتهم، عند من رأى ذلك، منعة وقوة، ووفرة في الانبساط والمحبة والوداد، وذخر في المساندة والمعونة والاستنصاح. سئل بعض الحكماء[١١١]: ما العيش؟ قال: إقبال الزمان، وعز السلطان، وكثرة الإخوان. وقيل[١١٢]: حلية المرء كثرة إخوانه. أما من رأى الخير في قلتهم فقد رأى في ذلك تخفيفًا من كلفة إنصافهم وثقل أداء حقوقهم. وتقليلاً من مزالق التنازع والاختلاف التي تنشأ بين الأصحاب أحيانًا وهي في رأيهم لا بد ناشئة ما كثر الإخوان، قال عمرو بن العاص[١١٣]: من كثر إخوانه كثر غرماؤه. وقال إبراهيم بن العباس[١١٤]: مثل الإخوان كالنار: قليلها متاع وكثيرها بوار. وقال ابن الرومي[١١٥]:

---

[١٠٩] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٢.

[١١٠] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٦٢.

[١١١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٥.

[١١٢] المصدر نفسه، ص٢٥٥.

[١١٣] المصدرنفسه، ص٢٥٥.

[١١٤] المصدر نفسه، ص٢٥٥.

[١١٥] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٥.

www.mtenback.com

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَدِيْقِـكَ مُسْـتَفَادٌ ... فَـلاَ تَسْـتَكْثِرَنَّ مِـنْ الصِّحَـابِ
فَـإِنَّ الـدَّاءَ أَكْـثَرُ مَـا تَـرَاهُ ... يَكُوْنُ مِـنَ الطَّعَـامِ أَوْ الشَّـرَابِ
وَدَعْ عَنْـكَ الكَثِـيْرَ فَكَـمْ كَثِـيْرٍ ... يُعَـافُ وَكَـمْ قَلِيْـلٍ مُسْـتَطَابُ
فَمَـا الُّلجَـجُ المِـلاَحُ بِمُرْوِيَـاتٍ ... وَتَلقَى الرِّيَّ فِيْ النُّطَـفِ العِـذَابِ

وقال بعض البلغاء[١١٦]: ليكن غرضك في اتخاذ الإخوان، واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدد، وتحصيل النفع، لا تحصيل الجمع، فواحد يحصل به المراد خير من ألف تكثّر الأعداد.

حقوق الصاحب:

إن للصاحب على الصاحب حقوقًا واجبة الأداء متى ما رغب في استدامة الصحبة والوفاء والإخلاص فيها. وجملة هذه الحقوق كثيرة متفرقة فمنها: حقوق القلب، وحقوق البدن والنفس، اللسان، وحقوق المال.

فحق القلب، المحبة والإنصاف فيها. ثم التوقي من الإفراط في هذه المحبة وإدامتها على كل حال من الأحوال التي قد تطرأ على الصاحب فلا يتغير القلب بالمواقف الطارئة والعثرات وماقد يحدث من طول الصحبة وتغير الحال، ولا يكون شيء من ذلك إلا إذا كانت الصحبة عن مودة، ورضي كل صاحب بصاحبه على علاته، قال بعضهم[١١٧]:

مَـاذَاقَتِ النَّفْـسُ عَلَـى شَـهْوَةٍ ... أَلَـذَّ مِـنْ حُـبِّ صَدِيْـقٍ أَمِـيْنْ
مَـنْ فَاتَـهُ وُدُّ أَخٍ صَـالِحٍ ... فَذَلِـكَ المغبُـوْنُ حَـقَّ اليَقِيْـنْ

[١١٦] المصدر نفسه، ص٢٥٥.

[١١٧] السلمي، آداب الصحبة، ص٦٧.

www.mtenback.com

وقال شاعر[118]:

لَمَـوَدَّةٌ مِمَّـنْ يُحِبُّـكَ صَادِقًـا خيرٌ مِن الرَّحِمِ القَرِيْـبِ الكَاشِـحِ

وقال اليزيدي[119]: رأيت الخليل بن أحمد فوجدته قاعدًا على طنفسة، فأوسع لي، فكرهت أن أضيق عليه، فقال: إنه لا يضيق سم الخياط على متحابين، ولا تسع الدنيا متباغضين. ولعل من أحسن ما قيل في محبة الصاحب بيت البحتري[120]:

وَجَدْتُ نَفْسَكَ مِنْ نَفْسِي بِمَنْزِلَةٍ هِيَ المُصَافَاةُ بَيْنَ المَاءِ وَالرَّاحِ

وقال شاعر[121]:

أَبْلِغْ أَخَاكَ أَخَا الإِحْسَانِ بِي حَسَنًا أَنِّي وَإِنْ كُنْتُ لاَ أَلْقَاهُ أَلْقَاهُ

فَإِنَّ طَرْفِي مَوْصُوْلٌ بِرُؤْيَتِهِ وَإِنْ تَبَاعَدَ عَنْ مَثْوَايَ مَثْوَاهُ

وقال بعضهم في محبة أصحابه[122]:

أَنْتُمْ سُرُوْرِي وَأَنْتُمْ مُشْتَكَى حَزَنِي وَأَنْتُمُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ سُمَّارِي

أَنْتُمْ وَإِنْ بَعُدَتْ عَنَّا مَنَازِلُكُمْ نَوَازِلٌ بَيْنَ أَسْرَارِي وَتَذْكَارِي

فَإِنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ أَلفِظْ بِغَيْرِكُمُ وَإِنْ سَكَتُّ فَأَنْتُمْ عَقْدُ إِضْمَارِي

ومن الإنصاف في المودة أن ترى لصاحبك عليك مثل الذي ترى لك عليه. ثم تؤدي ذلك وأنت به حفي سعيد قال جرير[123]:

---

[118] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٤٧.

[119] ابن قتيبة: عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٢.

[120] الأحيدب: حكم وأدب، ج٢، ص٢٦٩.

[121] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج٣، ج٧، ص١٤.

[122] التوحيدي، أبو حيان: رسالة الصداقة والصديق، دمشق، دار الفكر، (١٩٦٤م)، ص١٣.

[123] ابن قتيبة: عيون الأخبار، مج ٣، ج٧، ص١٨.

www.mtenback.com

وَإِنِّي لأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَيَّ مِنْ الحَقِّ الَّذِي لا يَرَى لِيَا

ولجرير أيضًا[١٢٤]:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ

وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تَضِيْمَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

وقال أبو العتاهية[١٢٥]:

إِذَا ما لَمْ يَكُنْ لَكَ حُسْنُ فَهْمٍ أَسَأْتَ إِجَابَةً وَأَسأْتَ سَمْعًا

وَلَسْتَ الدَّهْرَ مُتَّسِعًا بِفَضْلٍ إِذَا مَا ضِقْتَ بِالإِنْصَافِ ذَرْعًا

وقال حماد عجرد[١٢٦]:

لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ حُكْمٍ قَدْ أَرَاكُمْ تَحْكُمُوْنَا

أَنْ تَكُوْنُوا غَيْرَ مُعْطِيـ ـنَ وَأَنْتُمْ تَأْخُذُوْنَا

وقال دعبل الخزاعي[١٢٧]:

وَإِنَّ أَوْلَى البَرَايَا أَنْ تُوَاسِيَهُ عِنْدَ السُّرُوْرِ لَمَنْ آسَاكَ فِي الحَزَنِ

إِنَّ الكِرَامَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِي المَنْزِلِ الخَشِنِ

ويراد بالتوقي من الإفراط في المحبة الترفق والاقتصاد ومجانبة الغلو فيها، بحيث تصعب الرجعة إذا ما بانت دواعيها. وهو أمر مطلوب في العداوة أيضًا، فالأيام قُلَّب وكذلك أبناؤها أبناء آدم. وتشهد سير الجماعات في تاريخ العرب وحاضرهم على صداقات انقلبت إلى عداوات،و عداوات صارت إلى صداقات.

---

[١٢٤] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص١٨.

[١٢٥] المصدر نفسه، مج ٣، ج٧، ص١٩.

[١٢٦] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص١٩.

[١٢٧] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٢٠.

www.mtenback.com

وقد حملت هذا المعنى آثار وافرة لشعراء العرب وأدبائهم وحكمائهم وأهل الرأي فيهم. وأصدق ما يصور هذا المعنى الحديث الشريف:«أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»[١٢٨]. وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال[١٢٩]: لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا. وقال أبو الأسود الدؤلي[١٣٠]:

وَكُنْ مَعْدِنًا لِلخَيْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الأذَى ... فَإِنَّكَ راءٍ مَا عَلِمْتَ وَسَامِعُ

وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ هَوْنًا مُقارِبًا ... فَإِنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ

وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ غَيْرَ مُبَايِنٍ ... فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ

وقال بعضهم[١٣١]: هون فقد يفرط الحب فيقتل، ويفرط الغمُّ فيقتلُ، ويفرط السرور فيقتل، وينفتح القلب للسرور، ويضيق وينضم للحزن والحب. وقال عدي بن زيد[١٣٢]:

وَلاَ تَأْمَنَنْ مِنْ مُبْغِضٍ قُرْبَ دَارِهِ ... وَلاَ مِنْ مُحِبٍّ أَنْ يَمَلَّ فَيَبْعُدَا

والمحبة الصادقة ترفع العتب وتُكسب الرضا الذي لا يُرى معه عيب ولا منقصة، والثقة الموفورة في الصاحب تبعث على حمل أخطائه على محامل الخير، ولا تحوجه إلى المعاذير. ويظل مكانه في القلب على كل حال من إساءة أو إحسان، أو بعد أو قرب، أو قطيعة أو صلة. قال صاحب عيون الأخبار: قرأت في بعض الكتب: إنه ليبلغ من

---

[١٢٨] الترمذي، الجامع الصحيح، ج٤، ص٣٦٠ /١٩٩٧.

[١٢٩] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٦٣.

[١٣٠] الأحيدب، حكم وأدب، ج٢، ص١٣٨.

[١٣١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج ٣، ج٧، ص١٣.

[١٣٢] الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص٢٦٤.

www.mtenback.com

حسن شفاعة المحبة أن الحبيب يسيء فيُظن به الغلط، ويذنب فيحتج له بالدالة، وذنبه لا يحتمل التأويل، ولا مخرج له في جواز العقول[١٣٣]. وقال أبو نواس[١٣٤]:

لَـمْ أُواخِـذْكَ إِذْ جَنَيْـتَ لأَنِّـي ... وَاثِـقٌ مِنْـكَ بِالإِخَـاءِ الصَّحِيْـحِ
فَجَمِيـلُ العَـدُوِّ غَـيْرُ جَمِيـلٍ ... وَقَبِيـحُ الصَّدِيـقِ غَـيْرُ قَبِيْـحِ

وقال ابن الرومي[١٣٥]:

فَعُـذْرُكَ مَبْسُـوطٌ لِذَنْـبٍ مُقَـدَّمٍ ... وَوُدُّكَ مَقْبُـولٌ بِـأَهْلٍ وَمَرْحَـبِ
وَلَوْ بَلَّغَتْنِي عَنْـكَ أُذْنِـي أَقَمْتُهَـا ... لَـدَيَّ مَقَـامَ الكَاشِـحِ المُتَكَـذِّبِ
فَلَسْتُ بِتَقْلِيْـبِ اللِّسَـانِ مُصَارِمًـا ... خَلِيلاً إِذَا مَا القَلْـبُ لَـمْ يَتَقَلَّـبِ

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[١٣٦]:

فَلَسْتُ بِرَاءٍ عَيْبَ ذِي الـوِدِّ كُلِّـهِ ... وَلاَ بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتُ رَاضِيَـا
وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْـبٍ كَلِيْلَـةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَـاوِيَا

وقال معقل أخو أبو دلف لمخارق[١٣٧]:

لَعَمْرِي لَئِن قَـرَّتْ بِقُرْبِـكَ أَعْيُـنٌ ... لَقَدْ سَخِنَتْ بِـالبَيْنِ مِنْـكَ عُيُـونُ
فَسِرْ وَأَقِمْ، وَقْـفٌ عَلَيْـكَ مَوَدَّتِـي ... مَكَانُكَ مِنْ قَلْـبِي عَلَيْـكَ مَصُـونُ

أما حقوق الصاحب على البدن والنفس فتتمثل في الزيارة فهي حق الصاحب واجبة لأنها تساعد على دوام المحبة وتقوي الصلة، وتطلع الصاحب على أحوال

---

[١٣٣] ابن قتيبة، عيون الأخبار مج٣، ج٧، ص١٠.
[١٣٤] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٣٢٥.
[١٣٥] المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٥.
[١٣٦] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١١.
[١٣٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠.

www.mtenback.com

صاحبه، فتتيح له سد حاجته إذا ما كانت، مجنبًا إياه ذل السؤال. وهي بعد سانحة للانبساط والمؤانسة والتخفيف والترويح عن القلوب. وقد جاء الحض عليها في أدب العرب وفي عاداتهم وأخلاقهم، قال شاعر[١٣٨]:

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَاتَ آمِنًا ... عَلَى سَفَرٍ يَسْرِي بِهِ وَهْوَ لا يَدْرِي

تَثَاقَلْتُ إِلاَّ عَنْ يَدٍ أَسْتَفِيدُهَا ... وَزَوْرَةَ ذِي وُدٍّ أَشُدُّ بِهِ أَزْرِي

وقال آخر[١٣٩]:

أَزُورُ مَحَمَّدًا وَإِذَا التَقَيْنَا ... تَكَلَّمَتِ الضَّمَائِرُ فِي الصُّدُورِ

فَأَرْجِعُ لَمْ أُلِمْهُ وَلَمْ يُلِمْنِي ... وَقَدْ رَضِيَ الضَّمِيرُ عَلَى الضَّمِيرِ

وقال آخر[١٤٠]:

نَزُورُكُمْ لاَ نُكَافِئُكُمْ بِجُفْوَتِكُمْ ... إِنَّ المُحِبَّ إِذَا لَمْ يُسْتَزَرْ زَارَا

يُقَرِّبُ الشَّوْقُ دَارًا وَهْيَ نَازِحَةٌ ... مَنْ عَالَجَ الشَّوْقَ لَمْ يَسْتَبْعِدِ الدَّارَا

وكان يقال[١٤١]: امش ميلاً وعد مريضًا، وامش ميلين وأصلح بين اثنين، وامش ثلاثة أميال وزر أخًا في الله.

والتوسط في الزيارة معنى كثرت الإشارة إليه في آثار العرب، فكلا الحالين عندهم مذموم. انقطاع الزيارة مدعاة إلى الهجران وانجباب الصلة، وكثرتها سبب للملال وانطفاء جذوة الشوق. وقد قيل: «زر غبًا تزدد حبًا» وقال لبيد[١٤٢]:

---

[١٣٨] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٢٠.

[١٣٩] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٢٦.

[١٤٠] السلمي، آداب الصحبة، ص١٠٧.

[١٤١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٢٦.

[١٤٢] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٦٤.

www.mtenback.com

تَوَقَّفْ عَنْ زِيَارَةِ كُلِّ يَوْمٍ ... إِذَا أَكْثَرْتَ مَلَّكَ مَنْ تَزُوْرُ

وقال آخر[١٤٣]:

أَقْلِل زِيَارَتَكَ الصَّدِيْقَ وَلاَ تُطِل ... هِجْرَانَهُ فَيَلِجَّ فِي هِجْرَانِهِ

إِنَّ الصَّدِيْقَ يَلِجُّ فِي غِشْيَانِهِ ... لِصَدِيْقِهِ فَيَمَلَّ مِنْ غِشْيَانِهِ

حَتَّى تَرَاهُ بَعْدَ طُوْلِ سُرُوْرِهِ ... بِمَكَانِهِ مُتَثَاقِلاً بِمَكَانِهِ

وَإِذَا تَوَانَى عَنْ صِيَانَةِ نَفْسِهِ ... رَجُلٌ تُنُقِّصَ وَاسْتُخِفَّ بِشَانِهِ

وقال آخر[١٤٤]:

أَقْلِلْ زِيَارَتَكَ الصَّدِيْـ ... ـقَ يَرَاكَ كَالثَّوْبِ اسْتَجَدَّهْ

إِنَّ الصَّدِيْقَ يُمِلُّهُ ... أَلاَّ يَزَالَ يَرَاكَ عِنْدَهْ

وقال أبو تمام[١٤٥]:

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيْدَتْ مَحَبَّةً ... إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وقال شاعر[١٤٦]:

عَلَيْكَ بِإِقْلاَلِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا ... تَكُونُ مَتَى دَامَتْ إِلَى الهَجْرِ مَسْلَكَا

فَإِنِّي رَأَيْتُ القَطْرَ يُسْأَمُ دَائِمًا ... وَيُطْلَبُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

إن من حسن عشرة الصاحب صاحبه أن يلقاه متهللاً، طلق الوجه هاشًّا باشًّا، مسقطًا الكبر والتكلف، مظهرًا الفرح والانبساط. وهذا ما يبعث رغبة الصاحب في

---

(١٤٣) المصدر نفسه، ص٢٦٥.

(١٤٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٢٧.

(١٤٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٢٧.

(١٤٦) العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص٣٩.

www.mtenback.com

زيارة صاحبه، إذ يجد عنده الترويح والتخفيف. ورد في الحديث:«لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[١٤٧].

ومن علامات السرور بمقدم الصاحب المصافحة، وإذا صافحه فلا ينزع يده حتى يكون هو الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي يصرف، أسوة برسول الله ﷺ، كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده عن يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده من يد الرسول ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرف وجهه عن وجهه. ولا يكون بين الصاحبين تكلف ولا تحفظ، بل ينطلقان معًا على سجيتهما، ويكون أحدهما مع الآخر كأنه وحده. قال جعفر بن محمد الصادق[١٤٨]: أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي، وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي. وقال بعضهم[١٤٩] صحبت الناس خمسين سنة، فما وقع بيني وبينهم خلاف، فإني كنت معهم على نفسي، ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه. وقيل[١٥٠]: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن خفت مؤونته دامت مودته. ولا يعني ترك التكلف والتحفظ التهتك وترك الاحتشام، بل للصاحب أن يلتزم الحياء وهو يجالس صاحبه.

والزيارة إن لم تكن للسؤال عن الأحوال والمؤانسة كانت للتهنئة أو التعزية أو التوديع إذا خرج الصاحب في سفر. وكلها حقوق متضمنة في عقد الصحبة المنعقد بين الصاحبين. وتكون التهنئة للصاحب بكل ما يسره من حوادث الدنيا، وتكون التعزية في ما يسوؤه منها. وللعرب في أساليب التهنئة والتعزية إبداعات مشرقة تنم عن

---

[١٤٧] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٢٦.

[١٤٨] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٨٩.

[١٤٩] المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٩.

[١٥٠] المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٩.

www.mtenback.com

حكمة، وخبرة بأحوال الدنيا، وخلق سامٍ. كتب رجل إلى صديقه يهنئه بفطام مولود[١٥١]: أنا أعزك الله لما حملني الله من أياديك، وأودعني من إحسانك، وألزمني من شكرك، آخذ نفسي بمراعاة أمورك، وتفقد أحوالك، وتعرف ما يحدثه الله عندك، لأقابله بما يلزمني، وأقضي الحق فيه عني بمبلغ الوسع ومقدار الطاقة، وإن كانا لا يبلغان واجبك، ولا يستقلان بثقل عارفتك. وكل ما نقل الله الفتى وبلغه من أحوال البلوغ ورقاه في درجات النمو، فنعمة من الله حادثة تلزم الشكر، وحق يجب قضاؤه بالتهنئة. وكتب إليّ وكيلي المقيم ببابك يذكر ما وهبه الله من سلامته عند الفطام، وصلاح جسمه عند الطعام، وسلوته عن أول الغذاء، وسرورك ومن يليك بما وهب الله في هذه الحال من عافيته وحسن المدافعة عنه بما أرجو أن يتقبله، وكتبت مهنئًا بتجدد النعمة عندكم فيه. فالحمد لله المتطول علينا قبله بما هو أهله، والمجري لنا فيما يوليك على حسن عادته. وهنأك الله النعم وصانها عندك من الغيرَ، وحرسها بالشكر، وبلغ بالفتى أقصى مبالغ الشرف، وجعلك من الأمل فيه والرجاء له العيان واليقين، بمنه وفضله. وكتب ابن الرقاع لصديقه عندما تزوج[١٥٢]:

قَمَرُ الزَّمَانِ وَشَمْسُهُ اجْتَمَعَا ... بِالسَّعْدِ مَا غَابَا وَمَا طَلَعَا

مَا وَارَتِ الْأَسْتَارُ مِثْلَهُمَا ... فِيمَنْ رَأَيْنَاهُ وَمَنْ سَمِعَا

دَامَ السُّرورُ لَهُ بِهَا وَلَهَا ... وَتَهَنَّآ طُولَ الحَيَاةِ مَعَا

كما أنَّ من حق الصاحب وحسن الصحبة أن يكون المرء على صلة حسنة بصاحبه يعزيه عند المصيبة ويسليه عند الملمة ولا يغفل عنه عند الحاجة، وقد كتب عبد الله بن طاهر إلى صديقه أبي دلف يشاركه أحزانه فقال[١٥٣]: المصائب حالة لا بد

---

[١٥١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٧٠.

[١٥٢] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٦٩.

[١٥٣] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٥٥.

www.mtenback.com

منها، فمنها ما يكون رحمة من الله ولطفًا بعبده، وآية ذلك أن يوفقه للصبر ويلهمه الرضا ويبسط أمله فيما عنده من الثواب الآجل والخلف العاجل. ومنها ما يكون سخطًا وانتقامًا، أوله حزن، وأوسطه قنوط، وآخره ندامة، وهي المصيبة حقًا الجامعة لخسران الدنيا والآخرة. ولم تزل عادة الله عندك الإخلاف والإتلاف. وإن يك ما نالك الآن أعظم مما أتى عليك في مواضي الأيام، فالأجر المأمول على قدر ذلك. وقال صاحب عيون الأخبار[١٥٤]: قرأت في كتاب تعزية: لو كانت النوائب مدفوعة عن أحد بكثرة من يقيه ذلك من إخوانه ويفديه منه بالأخصّ من أعزته، والأنفس من ماله، سلمت من ملمها، وكان سبقي إلى ذلك أبرز سبق، وحظي بالتقدم فيه أوفر حظ. وقيل[١٥٥]: إن أول من هنأ وعزى في مقام واحد عطاء بن أبي صيفي الثقفي، عزى يزيد بن معاوية بأبيه وهنأه بالخلافة ففتح للناس باب الكلام، فقال: أصبحت رزئت خليفة وأعطيت خلافة الله، قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية، واشكر الله على أعظم العطية. وعظم الله في أمير المؤمنين أجرك، وأحسن على الخلافة عونك.

ومن حسن عشرة الصاحب صاحبه، وصيانة حقوق صحبته أن يودعه حين خروجه للسفر، ويدعو له بالسفر السعيد والعود الحميد، ثم يتفقد أهله في غيبته ويقضي حوائجهم بحيث لا يفقدون من أبيهم إلا عينه.

يروى أنه ودع رجلٌ صديقًا له وهو يقول[١٥٦]:

وَدَاعُكَ مِثْلُ وَدَاعِ الرَّبِيعْ ... وَفَقْدُكَ مِثْلُ افْتِقَادِ الدِّيَمْ

---

[١٥٤] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٥٦.

[١٥٥] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٦٨.

[١٥٦] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٣٢.

www.mtenback.com

عَلَيْكَ سَلاَمٌ فَكَمْ مِنْ وَفَاءٍ نُفَارِقُهُ مِنْكَ أَوْ مِنَ كَرَمْ

وقال آخر لرجل ودعه[١٥٧]: بقي أن نكف من غرب الشؤون، ونستعين على فرقة الوحشة بالكتب، فإنها ألسن ناطقة،و عيون رامقة.

وكتب شاعر إلى صاحب:

نُبِّئْتُ[١٥٨] أَنَّكَ مُعْتَلٌّ فَقُلْتُ لَهُمْ نَفْسِي الفِدَاءُ لَهُ مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ

يَا لَيْتَ عِلَّتَهُ بِي غَيْرَ أَنَّ لَهُ أَجْرَ العَلِيلِ وَأَنِّي غَيْرُ مَأْجُورِ

ومن حقوق الصحبة حق الصاحب على لسان صاحبه، فواجب على الصاحب أن يستر عيوب صاحبه، ولا يجبهه بعيبه، إلا ما كان من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة المحضوض عليها. ثم هو لا يحاول التطلع إلى خبايا نفسه بسؤاله عما يكره أو عما يحمل على أنّه ضرب من التحسس والتجسس. وقد ورد في الحديث: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[١٥٩].

ومن حق الصاحب كفّ اللسان بحفظ السر وكتمان ما لا يرغب الصاحب في إفشائه. وقد قيل[١٦٠]: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقيل[١٦١] إن قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه. والصاحب الكريم لا يفشي السر وإن انقطع حبل الود وتصرم الوصل. قال ابن المعتز[١٦٢]:

وَمُسْتَوْدِعِي سِرًّا تَبَوَّأْتُ كَتْمَهُ فَأَوْدَعْتُهُ صَدْرِي فَصَارَ لَهُ قَبْرا

---

[١٥٧] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٣٣.

[١٥٨] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٤٥.

[١٥٩] مسلم، صحيح مسلم، ج١٥، ص١٤٣.

[١٦٠] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٧٩.

[١٦١] المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٩.

[١٦٢] المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٩

www.mtenback.com

وقال آخر[١٦٣]:

وَمَا السِّرُّ فِي صَدْرِي كَتَاوٍ بِقَبْرِهِ ... لأَنِّي أَرَى المَقْبُورَ يَنْتَظِرُ النَّشْرَا
وَلَكِنَّنِي أَنْسَاهُ حَتَّى كَأَنَّنِي ... بِمَا كَانَ مِنْهُ لَمْ أُحِطْ سَاعَةً خُبْرَا
وَلَوْ جَازَ كَتْمُ السِّرِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... عَنِ السِّرِّ وَالأَحْشَاءِ لَمْ تَعْلَمِ السِّرَا

وقال بعضهم[١٦٤]:

لَيْسَ الكَرِيْمُ الَّذِي إِنْ زَلَّ صَاحِبُهُ ... بَثَّ الَّذِيْ كان مِنْ أَسْرَارِهِ عَلِمَا
إِنَّ الكَرِيْمَ الَّذِي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ ... وَيَحْفَظُ السِّرَّ إِنْ صَافَى وَإِنْ صَرَمَا

ويحسن الصاحب عشرة صاحبه إن كفّ لسانه عن الإسراف في مدحه والمبالغة في الثناء عليه. ولايبالغ في مدحه، وقد قال النبي ﷺ لرجل بالغ في مدح آخر: «ويحك، قطعت عنق صاحبك، إن كان أحدكم مادحًا لامحالة فليقل، أحسبه كذا وكذا – إن كان يرى أنه كذلك – والله حسيبه، ولا يزكي أحدًا على الله».

أما حق الصاحب في لسان صاحبه بالنطق، فهو أن يعطيه من لسانه ما يحبه منه، ويُدخل السرور عليه، فيدعوه بأحب أسمائه إليه. قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه[١٦٥]: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له من المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه. ومن ذلك أيضًا أن يثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله من غير كذب ولا إفراط بما لم يتح لغيره التعرف عليه من فضائله او تقدير درجتها. ثم إن على الصاحب واجبًا بإخبار صاحبه بما يقال فيه مدحًا كان أو قدحًا. فإخفاء المدح هو الحسد المحض، وإخباره القدح إطلاع له على الحقيقة حتى لا يعمى عنها، مع

---

[١٦٣] المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٩.

[١٦٤] السلمي، آداب الصحبة، ص٧٠.

[١٦٥] أبو السعود، الأخوة الإسلامية، ص١٤٥.

www.mtenback.com

الاحتراز من أن يكون ذلك نميمة يقصد بها إشعال نار العداوات. ومن حق اللسان بالنطق كذلك تجريده للذبّ عن الصاحب في غيبته أو حضوره متى ما قصد بسوء أو طاله أحد بلسانه في غيبته. قال بعضهم[١٦٦]: ما ذكر أخٌ إلا تصورت نفسي في صورته، فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في. ومن حق اللسان بالنطق شكر الصاحب على ما يصنعه من معروف في صاحبه. قال البحتري[١٦٧]:

فَيَا خَيْرَ مَصْحُوبٍ إِذَا أَنَا لَمْ أَقُمْ ... بِشُكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي شَرٌّ صَاحِبِ

وقال الخريمي[١٦٨]:

لَهُ نِعَمٌ عِنْدِي ضَعُفْتُ بِشُكْرِهَا ... عَلَى أَنَّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَزِيْدُهَا

تَحَمَّلَ عَنِّي شُكْرَهَا فَأَرَاحَنِي ... وَلِلشُّكْرِ مَرْقَاةٌ كَؤُودٌ صُعُودُهَا

ويحسن الصاحب عشرة صاحبه إذا جرد لسانه للشفاعة في حاجة من حاجاته بما أذن فيه الشرع عند من يقضيها. قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾[١٦٩]. وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة، قال:«اشفعوا فتؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما أحب»[١٧٠].

وللصحبة حقوق تتصل بالمال، فالصاحبان يتعاونان في شؤون الدين والدنيا ويتراحمان في السراء والضراء، ويرتفع بينهما فيما يملكان الاختصاص والاستئثار. وفي ذلك درجات بحسب قوة الصلة وسماحة النفوس، فيقضي أحدهما حاجات صاحبه من

---

[١٦٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٨١.

[١٦٧] العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص١٩٤.

[١٦٨] المصدر نفسه، ج١، ص١٩٧.

[١٦٩] سورة النساء: ٨٥.

[١٧٠] مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠٢٦.

www.mtenback.com

فضل ماله وقد يوجه إلى السؤال. وثمة من ينزل صاحبه منزلة نفسه فيشاركه ماله ويشاطره ملكه. وفوق هذين درجة من يؤثر صاحبه على نفسه، فيقدم حاجته على حاجة نفسه، وهي منتهى درجات المحبة وغاية حسن العشرة وصيانة الصحبة.

ومن كريم العشرة أن يتفقد الصاحب أحوال صاحبه وأهله وعياله، ويتلمس حاجاته فيسدها مواسيًا صاحبه بماله وصائنًا إياه من ذل المسألة. قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[١٧١] وقال أبو سليمان الداراني[١٧٢]: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخٍ من إخواني لا ستقللتها له. وقال أيضًا[١٧٣]: إني لألقم اللقمة أخًا من إخواني فأجد طعمها في حلقي. وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال[١٧٤]: إني أريد أن أواخيك في الله، فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال عرفني، قال: ألا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عني، وقال ابن المقفع[١٧٥]: ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحيتك، ولعدوك عدلك،وضن بدينك وعرضك عن كل أحد. وقال ابن المنكدر[١٧٦]: لم يبق من لذة الدنيا إلا قضاء حوائج الإخوان.

والتهادي بين الأصحاب خلة من خلال حسن العشرة وإحقاق الصحبة حقها. وهي تزيد في المحبة وتبهج النفوس، وتُذهب عن القلوب الجفاء والضغائن.ورد في الحديث: «تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر»[١٧٧].

---

[١٧١] سورة الحشر: ٩.

[١٧٢] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٧٤.

[١٧٣] المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٤.

[١٧٤] أبو السعود، الأخوة الإسلامية، ص١٦.

[١٧٥] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٦.

[١٧٦] السلمي، آداب الصحبة، ص١٠٢.

[١٧٧] الترمذي، الجامع الصحيح، ج٤، ص٤٤١/٢١٣٠.

www.mtenback.com

وقال بعض الشعراء[١٧٨]:

إنَّ الهَدِيَّـــــةَ حُلـــــــوَةٌ ... كَالسِّـــحْرِ تَجْتَـــــذِبُ القُلُوبَـــا
تُدْنِـــي البَغِيْـــضَ مِـــنَ الهَـــوَى ... حَتَّـــى تُصَـــــيِّرَهُ قَرِيْبَـــا
وَتُعِيْـــدُ مُضْطَغَـــنَ العَـــدَا ... وَةِ بَعْـــدَ نُفْرَتِـــــهِ حَبِيْبَـــا

وروى الزبير بن بكارٍ عن عمه قال[١٧٩]: كان الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة يجلس وعمرو بن عبد الله بن صفوان، ما يكادان يفترقان، وكان عمـــرو يبعـــث إلى الحارث في كل يوم بقربة من لبن إبله، فاختلف ما بينهما، فأتى عمرو أهله، فقـــال: لا تبعثوا للحارث باللبن فإنا لا نأمن أن يرده علينا، وانقلب الحارث إلى أهله فقال: هـــل أتاكم اللبن؟ قالوا: لا، فلما راح الحارث بعمرو قال: يا هذا، لا تجمعن علينا الهجـــر وحبس اللبن، فقال: أما إذا قلت هذا فلا يحملها إليك غيري، فحملها من ردم بني جمح إلى أجياد.

وقد تَقْصُر يد الرجل وحوله عن الهدية اللائقة وقد يعجز عنها، فيحتال لذلـــك بجيد الكلام، فتلقى هديته القبول على ضآلتها أو عجزه عنها. أهدى الطـــائي[١٨٠] إلى الحسن بن وهب قلمًا وكتب إليه:

قَدْ بَعَثْنَـــا إِلَيْـــكَ أَكْرَمَـــكَ اللَّـــ ... ـــهُ بِشَـــيْءٍ فَكُـــنْ لَـــهُ ذَا قَبُـــولِ
لاَ تَقِسْهُ إِلَى نَـــدى كَفِّـــكَ الغَمْـــ ... ـــرِ وَلاَ نَيْلِـــكَ الكَثِـــيرِ الجَزِيْـــلِ
وَاعْتَـــبِرْ قِلَّـــةَ الهَدِيَّـــةِ مِنِّـــي ... إِنَّ جَهْـــدَ المُقِـــلِّ غَـــيْرُ قَلِيْـــلِ

---

[١٧٨] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧ ، ص٣٥.

[١٧٩] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧ ، ص٣٥.

[١٨٠] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٣٩.

www.mtenback.com

وقال أبو السمط[١٨١]:

بِدَوْلَـةِ جَعْفَـرٍ حَسُـنَ الزَّمَـانُ ... لَنَـا بِـكَ كُـلَّ يَـوْمٍ مَهْرَجَـانُ

لِيَـوْمِ المَهْرَجَـانِ بِـكَ اخْتِيَـالٌ ... وَإِشْـرَاقٌ وَنُـورٌ يُسْـتَبَانُ

جَعَلتُ هَدِيَّتِـي لَـكَ فِيْـهِ وَشْـيًا ... وَخَيْرُ الوَشْيِ مَـا نَسَـجَ اللِّسَـانُ

وقال رجل لأبي الدرداء[١٨٢]: إن فلانًا يقرئك السلام، فقال: هدية حسنة وحمل خفيف.

ولهم طرائف في الهدية إذا كانت غير لائقة و لم يوفق صاحبها في اختيارها. قال بعضهم يصف الهدية اللائقة ويحدد شروطها[١٨٣]: الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير، فكلما لطفت ودقت كان أبهى لها، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير، فكلما عظمت وجلت كان أوقع لها وأنجع.

وقد أهدى رجل إلى صديق له وكتب إليه[١٨٤]: الأنس سَهَّلَ سبيل الملاطفة، فأهديت هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم، ووشحها بهذه الأبيات:

هَدِيَّتِـي تَقْصُـرُ عَـنْ هِمَّتِـي ... وَهِمَّتِـي تَعْلُـو عَلَـى مَـالِي

وَخَـالِصُ الـوُدِّ وَمَحْـضُ الهَـوَى ... أَحْسَـنُ مَـا يُهْدِيْـهِ أَمْثَـالِي

وأهدى أبو إسحاق بن هلال الصابي[١٨٥] إلى عضد الدولة في يوم مهرجان إصطرلابًا على قدر الدرهم محكم الصنعة، وكتب إليه رسالة، ووشحها بهذه الأبيات:

---

[١٨١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٣٩.

[١٨٢] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٤١.

[١٨٣] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٣٨.

[١٨٤] القرطبي، الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر: بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص٢٨٧.

[١٨٥] القرطبي، بهجة المجالس، ص٢٨٧

www.mtenback.com

أَهْدَى إِلَيْكَ بَنُو الحَاجَاتِ وَاحْتَشَدُوا ... فِي مَهْرَجَانٍ عَظِيْمٍ أَنْتَ تُعْلِيْهِ
لَكِنَّ عَبْدَكَ إِبْرَاهِيْمَ حِيْنَ رَأَى ... سُمُوَّ قَدْرِكَ عَنْ شَيْءٍ تُسَامِيْهِ
لَمْ يَرْضَ بِالْأَرْضِ يُهْدِيْهَا إِلَيْكَ فَقَدْ ... أَهْدَى لَكَ الفَلَكَ الْأَعْلَى بِمَا فِيْهِ

تلون الأصحاب:

تلوُّن الأصحاب آفة من الآفات التي دفعت ببعض الناس إلى العزلة وترك مخالطة الناس. وهي على كل حال ليست حالة كل صاحب. ولعل ما أشرنا إليه من لزوم التحريّ والاختبار قبل اصطفاء الأصحاب فيه عصمة من مزالق التلوُّن. ولما لم يكن حظ كل الناس من القدرة على ابتلاء الأصحاب وتمحيصهم حظاً وافراً فقد يقع بعضهم في صحبة من تلونه الأيام وتقلّبه. هؤلاء المتلونون هم من يُشار إليهم في أدب العرب بشرار الرفقاء والإخوان وقرناء السوء. وهذا باب واسع فيه وفرة من الآثار.

وقد يرتبط الأمر أحيانًا بذمّ الزمان ورجاله. ومن قديم ما يروى في ذلك قول لبيد بين ربيعة[١٨٦]:

ذَهَبَ الَّذِيْنَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيْتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وقال بعض الأعراب[١٨٧]:

إِخْوَانُ هَذَا الزَّمَانِ كُلُّهُمُ ... إِخْوَانُ غَدْرٍ عَلَيْهِ قَدْ جُبِلُوا
طَوَوا ثِيَابَ الوَفَاءِ بَيْنَهُمُ ... وَصَارَ ثَوْبُ الرِّيَاءِ يُبْتَذَلُ
أَخُوهُمُ الْمُسْتَحِقُّ وَصْلَهُمُ ... مَنْ شَرِبُوا عِنْدَهُ وَمَنْ أَكَلُوا
وَلَيْسَ - فِيْمَا عَلِمْتُ - بَيْنَهُمُ ... وَبَيْنَ مَنْ كَانَ مُعْدَمًا عَمَلُ

---

[١٨٦] العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص١٩٨.

[١٨٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٨١.

www.mtenback.com

وقال أبو فراس بن حمدان[188]:

تَناسَانِيَ الأصحابُ إلا عُصَيْبَةً ... ستلحَقُ بالأخرى غدًا وتَحُولُ

ومَنْ ذا الذي يَبْقَى على العَهْدِ إنَّهمْ ... وإنْ كَثُرتْ دَعْواهمُ لقليلُ

أُقَلِّبُ طَرْفي لا أَرَى غَيْرَ صاحبٍ ... يَميلُ مَعَ النَّعْماءِ حَيْثُ تَميلُ

وصِرْنا نَرَى أَنَّ المُتارِكَ مُحْسِنٌ ... وأنَّ خَليلاً لا يَضُرُّ خَليلُ

وقال العباس بن الأحنف[189]:

أَشْكُو الَّذِيْنَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ ... حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي فِي الهَوَى رَقَدُوا

وَاسْتَنْهَضُونِي فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَهِضًا ... بِثِقْلِ مَا حَمَّلُونِي فِي الهَوَى قَعَدُوا

وحذرت العرب من الصاحب ذي الوجهين الذي ترى منه ظاهرًا غير باطنه، ونبهوا إلى خطر الانبساط معه وتمكينه من الأسرار، فمثله إذا ما تصرمت الصلة لا بد مفشيها. قال أبو العتاهية[190]:

وَشَرُّ الأَخِلاَّءِ مَنْ لَمْ يَزَل ... يُعَاتِبُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَذُمْ

يُرِيْكَ النَّصِيْحَةَ عِنْدَ اللِّقَاءْ ... وَيَبْرِيْكَ فِي السِّرِّ بَرْيَ القَلَمْ

وما أخطر ذلك الإنسان الذي يرتدي لبوس الصداقة والصحبة، ويظل معدن السوء في داخله محرضًا على استغلال تلك العلاقة لكشف العيوب وعدّ الأخطاء، وإيذاء الصديق بها فيما بعد. وقال شاعر[191]:

---

[188] أبو فراس الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدوني: ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، (١٩٨٦م)، ص١٣٦.

[189] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٧٨.

[190] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٢٢٥.

[191] العسكري، ديوان المعاني، ج٢، ص٢٠٠.

www.mtenback.com

احْـــذَرْ مَـــوَدَّةَ مَـــا ذِقِ شَـــابَ المَـــرَارَةَ بِـــالحَلاَوه
يُحْصِـــي العُيُـــوبَ عَلَيْـــكَ أَيَّـــا مَ الصَّداقَـــةِ لِلْعَـــدَاوَه

ولذا فقد وجب أن يميّز العاقل بين الصاحب وأشباهه، فما أسهل أن يكون شبيه الصاحب منافقًا ذا وجهين، فيغترّ به كلُّ غافل حسن النيّة، مع أنّ عينيه تكشفان السوء الذي في صدره. قال سويد بن الصامت[١٩٢]:

أَلاَ رُبَّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَـرَى مَقَالَتَهُ بِالغَيْبِ سَـاءكَ مَـا يَفْـرِي
مَقَالَتُهُ كَالشَّهدِ مَـا كَـانَ شَـاهِدًا وَبِالغَيْبِ مَأْثُورٌ عَلَى ثُغْـرَةِ النَّحْـرِ
تُبِيْنُ لَكَ العَيْنَـانِ مَـا هُـوَ كَـاتِمٌ مِنَ الضِّغْنِ وَالشَّحْنَاءِ بِالنَّظَرِ الشَّـزْرِ

ولصاحب السوء علامات عديدة أخرى، تدل على مفاسده. وإنّ وفاءه وصدقه في ابتسامة مكررة يؤديها وإقبال مُصْطَنَع يخدع به صاحبه فيظن منه وحدة الحال معـه، قالت أعرابية لابنها[١٩٣]: يا بني، إياك وصحبة من مودته بِشْرُهُ فإنه بمنزلة الريح.

ومن الأصحاب من يتبدل بتبدل أحوال الصاحب أو أحوال نفسه، فهـو مـع صاحبه في السراء بعيد عنه في الضراء، يشركه في النعمة ويخذله عند النائبة، وهو معـه ما كانا مستويين، فإذا بدت لصاحبه حاجة إليه أعرض وانصرف.

كتب إبراهيم بن العباس إلى محمد بن عبد الملك الزيات[١٩٤]:

وَكُنْـتَ أَخِـي بِإِخَـاءِ الزَّمَـانِ فَلَمَّـا نَبَـا صِـرْتَ حَرْبًـا عَوَانَـا
وَقَدْ كُنْتُ أَشْـكُو إِلَيْـكَ الزَّمَـانَ فَـأَصْبَحْتُ فِيْـكَ أَذُمُّ الزَّمَانَـا

---

[١٩٢] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٨١.

[١٩٣] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٧٧.

[١٩٤] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص٧٤.

www.mtenback.com

وَكُنْتُ أَعُدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا

ولا شك أن الأصحاب بشر يصيبهم ما يصيب الناس من الوفاء والغدر والمكر والخديعة وإذا أساء الإنسان اختيار أصحابه فلا يعتب عليهم عندما يتنكرون له، ولكن العتب على نفسه التي لم تختر الرجال و لم تمتحن وفاءهم وقدرتهم على مزايلة الأحوال وتغير الأيام. والمال هو مقياس صادق لوفاء الأصحاب أو عدم ذلك، وقد صدق جرير حين ابتلي بصاحب وقريب، فوجد أنه مغرور بظنه الحسن فيه، فقال[١٩٥]:

فَأَنْتَ أَخِي مَالَمْ تَكُنْ لِيَ حَاجَةٌ فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لاَ أَخَا لِيَا
تَعَرَّضْتُ فَاسْتَمْرَرْتُ مِنْ دُونِ حَاجَتِي فَحَالُكَ إِنِّي مُسْتَمِرٌ لِحَالِيَا
وَإِنِّي لَمَغْرُورٌ أُعَلِّلُ بِالْمُنَى لَيَالِيَ أَرْجُو أَنَّ مَالَكَ مَالِيَا
بِأَيِّ نِجَادٍ تَحْمِلُ السَّيْفَ بَعْدَمَا نَزَعْتَ سِنَانًا مِنْ قَنَاتِكَ مَاضِيَا

وقد حذروا من الصاحب الذي تكون صحبته مرتبطة بحاجة يريدها فإذا مازالت الحاجة زالت الصحبة، وما أكثر هؤلاء الأصحاب أهل الحاجات، ولا يغتر بهم إلا غرّ ضعيف الحيلة عاجز الرأي، وقد وصفهم أبو العتاهية بقوله[١٩٦]:

أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَاحِبِكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِذَا احْتَجْتَ إِلَيْهِ سَاعَةً مَجَّكَ فُوهُ

وقول الآخر[١٩٧]:

وَصَاحِبٍ كَانَ لِي وَكُنْتُ لَهُ أَشْفَقَ مِنْ وَالِدٍ عَلَى وَلَدِ
كُنَّا كَسَاقٍ تَسْعَى بِهَا قَدَمٌ أَوْ كَذِرَاعٍ نِيطَتْ إِلَى عَضُدِ

---

[١٩٥] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٨٣.

[١٩٦] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٨٤.

[١٩٧] العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص١٩٨.

www.mtenback.com

حَتَّـى إِذَا دَانَـتِ الحَـوَادِثُ مِـنْ ... خَطْوِي وَحَلَّ الزَّمَانُ مِـنْ عُقَـدِي
احْوَلَّ عَنِّـي وَكَـانَ يَنْظُـرُ مِـنْ ... عَيْنِـي وَيَرْمِـي بِسَـاعِدِي وَيَـدِي
وَكَانَ لِـي مُؤْنِسًـا وَكُنْـتُ لَـهُ ... لَيْسَـتْ بِنَـا وَحْشَـةٌ إِلَـى أَحَـدِ
حَتَّـى إِذَا اسْـتَرْفَدَتْ يَـدِي يَـدَهُ ... كُنْـتُ كَمُسْـتَرْفِدٍ يَـدَ الْأَسَـدِ

وأكثر ما يكون التلون من الصاحب إذا افتقر صاحبه بعد غنى، وأيس من رفده وعطائه، أو انتقل هو من حالة عسر إلى يسر فاستغنى عن صاحبه. وقد يشرف بمنصب أو جاه يكتسبه فيغير من خاصته بما يناسب مقامه الجديد، ومثله لا بد مذموم في كل زمان ومكان وقد رصد العرب هذه الأخلاق الرديئة وبينوها وعابوا أصحابها وانتقدوا من هذا حاله. قال شاعر[١٩٨]:

مَوَالِيْنَـا إِذَا افْتَقَـرُوا إِلَيْنَـا ... وَإِنْ أَثْـرَوا فَلَيْـسَ لَنَـا مَوَالِـي

وقال آخر[١٩٩]:

إِذَا رَأَيْتَ امْـرَأً فِي حَـالِ عُسْـرَتِه ... مُوَاصِلاً لَـكَ مَـا فِـي وُدِّهِ خَلَـلُ
فَلاَ تَمَـنَّ لَـهُ أَنْ يَسْـتَفِيْدَ غِنًـى ... فَإِنَّـهُ بِانْتِقَـالِ الحَـالِ يَنْتَقِـلُ

وقال حماد عجرد[٢٠٠]:

كَمْ مِـنْ أَخٍ لَـكَ لَسْـتَ تُنْكِـرُهُ ... مَا دُمْتَ فِـي دُنْيَـاكَ فِـي يُسْـرِ
مُتَصَنِّـعٌ لَـكَ فِـي مَوَدَّتِـهِ ... يَلقَـاكَ بِـالتَّرْحِيبِ وَالبِشْـرِ
فَـإِذَا عَـدَا - وَالدَّهْـرُ ذُو غِـيَرٍ ... دَهْـرٌ عَلَيْـكَ عَـدَا مَـعَ الدَّهْـرِ

---

[١٩٨] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٨٤.

[١٩٩] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٧٤.

[٢٠٠] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٨٤.

www.mtenback.com

فَارْفُضْ بِإِجْمَالٍ مَوَدَّةَ مَنْ يَقْلِي المُقِلَّ وَيَعْشَقُ المُثْرِي
وَعَلَيْكَ مَنْ حَالاَهُ وَاحِدَةٌ فِي العُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَاليُسْرِ

وعلى العكس من هذا فقد مدحوا الذي لا تغيره الليالي، فلا يفرُّ عند الحاجة والنائبات، ولا يبدله المال والمنصب والجاه. وذلك كثير في أخلاق العرب، ومن عاداتهم الوفاء وحسن الصحبة في الغنى والفقر، وقد قال إبراهيم بن العباس واصفًا حال الأوفياء الدائمين على محض الصحبة ساء الزمان أو سرّ[٢٠١]:

وَلَكِنَّ الجَوَادَ أَبَا هِشَامٍ وَفِيّ العَهْدِ مَأْمُونُ المَغِيبِ
بَطِيْءُ العَهْدِ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ وَطَلاَّعٌ عَلَيْكَ مَعَ الخُطُوبِ

وقال أيضًا[٢٠٢]:

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا هَيَّجْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدِرَا
يَعْرِفُ الأَبْعَدَ إِنْ أَثْرَى وَلاَ يَعْرِفُ الأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

وقال أيضًا[٢٠٣]:

وَلَكِنَّ عَبْدَ اللهِ لَمَّا حَوَى الغِنَى وَصَارَ لَهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِهِ مَالُ
رَأَى خَلَّةً مِنْهُمْ تُسَدُّ بِمَالِهِ فَوَاسَاهُمُ حَتَّى اسْتَوَتْ بِهِمُ الحَالُ

التجاوز عن زلات الأصحاب:

يزل الصاحب ويهفو، لأنه بشر ليس معصومًا عن الزلل، ومن يطلب الصاحب المؤتمن من الزلة، الذي يدوم اغتباطه به، متطلب في الماء جذوة نار. يظل يحصي على

(٢٠١) العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص١٩٥.
(٢٠٢) العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص١٩٥.
(٢٠٣) السلمي، آداب الصحبة، ص١١٣.

www.mtenback.com

صاحبه تقصيره في حق الصحبة، ويتصيد له غلطه فيها، فيوسعه تقريعًا وتأنيبًا يسوقان إلى الهجران، فلا يبقى له من الأصحاب شيء. وشرٌ منه من يعلم عيب الصاحب فينشره ويشيعه بين الناس، فيجرُّ عليه قالة السوء. وفي أدب العرب أقوال تنبه إلى وجوب قبول الصاحب ما غلبت فضائله الرذائل. قال بعض الحكماء[٢٠٤] طلب الأنصاف من قلة الإنصاف. وقال بعض البلغاء[٢٠٥]: لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته، وارتضيت وتيرته، وعرفت فضله، وبطنت عقله، عيب خفي، تحيط به كثرة فضائله، أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله، فإنك لن تجد - ما بقيت - مهذبًا لا يكون فيه عيب، ولا يقع منه ذنب، فاعتبر بنفسك بعد ألا تراها بعين الرضا، ولا تجري فيها على حكم الهوى، فإن في اعتبارك بها، واختبارك لها، ما يؤيسك مما تطلب، ويعطفك على من يذنب.

وقد لاحظ العرب الصلة بين الإنسان والأصحاب الذين يختارهم، وطالبوه عندما يشعر بتقصير أصحابه أن يعود إلى نفسه، ويرى حاله، فإذا كان يطلب من أصحابه شيئًا فلينظر هل لو كان المحتاج للعون صاحبه إليه، كيف يكون رده وما مدى صدقه في صحبته، وانتقدوا من يطلب من الأصحاب أكثر مما يجود به إذا جاءت الحاجات إليه، وقد جسد ابن الرومي هذا الشعور قائلاً[٢٠٦]:

هُمُ النَّاسُ والدنيا وَلاَ بُدَّ مِنْ قَذَى ... يُلِمُّ بِعَيْنٍ أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبَا

وَمِنْ قِلَّةِ الإِنْصَافِ أَنَّكَ تَبْتَغِي الـ ... ـمُهَذَّبَ فِي الدُّنْيَا وَلَسْتَ الْمُهَذَّبَا

وأقرب منه قول الآخر[٢٠٧]:

---

[٢٠٤] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٩.

[٢٠٥] المصدر نفسه، ص٢٥٩.

[٢٠٦] المصدر نفسه، ص٢٦٠.

[٢٠٧] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٩.

www.mtenback.com

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وأحسن بشار عندما وصف علائق الناس ونصح بقبولها على علاتها قائلاً[٢٠٨]:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرارًا عَلَى القَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

أما أصحاب النظر العقلاني فقد قبلوا من الصاحب أقل الأشياء وتركوا ما لايستطيع واكتفوا بظاهر المصاحبة، إذ لا يجدون أخا الثقة وصادق المصاحبة، وقد عرض هذا الرأي الشاعر حين قال[٢٠٩]:

مَا كِدْتُ أَفْحَصُ عَنْ أَخِي ثِقَةٍ إِلاَّ نَدِمْتُ عَوَاقِبَ الفَحْصِ

ومثله قول النابغة المشهور وبيته المذكور الذي سارت به الركبان ونطق به لسان كل رجل لا يجد الصاحب المناسب[٢١٠]:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ؟

وقال ابن أبي خازم[٢١١]:

اِرْضَ مِنَ الْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهْ

مَنْ يَكْشِفِ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا تَصِحُّ مِنْهُ لَهُ سَرَائِرُهْ

ولما كان النقص جبلة الإنسان،والتقصير خلقه، يلازمه العيب ملازمة ظله إياه، فليس أبر من قبوله على العلات،والعقل عين العقل استبقاء الصاحب حفاظًا على الإفادة من فضائله مهما قلت، وقد ينفعك في حال، وإن لم يكن في كل الأحوال. قال الرياشي[٢١٢]:

---

[٢٠٨] المصدر نفسه، ص٢٥٩.

[٢٠٩] العسكري، ديوان المعاني، ج١، ص١٩٦.

[٢١٠] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٥٩.

[٢١١] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص٢٠٤.

[٢١٢] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٧.

www.mtenback.com

اقْبَـــلْ أَخَـــــاكَ بِبَعْضِـــــهِ قَـــدْ يُقْبَـــلُ المَعْـــــرُوفُ نَـــــزْرَا
وَاقْبَـــــلْ أَخَـــــاكَ فَإِنَّـــــهُ إِنْ سَـــاءَ عَصْـــرًا سَـــرَّ عَصْـــــرَا

والبيت التالي أكثر واقعية في وصف الصاحب الذي إذا ساءتك منـــه خصلـة دعتك إليه أخرى[٢١٣]:

أَخٌ لِـي كَأَيَّـامِ الحَيَـاةِ إِخَـــاؤُهُ تَلَـوَّنُ أَلوَانًـا عَلَـيَّ خُطُوبُهَـــا
إِذَا عِبْـتُ مِنْـهُ خُلَّـةً فَهَجَرْتُـــهُ دَعَتْنِـي إِلَيْـهِ خُلَّـةٌ لاَ أَعِيبُهَـــا

ومثله رأي أبي العتاهية الذي لا يجد الكمال المطلق ويطلب القبول بما أمكن من حسن الصحبة، فيقول[٢١٤]:

إِنَّ فِي حِصَّـــةِ الْإِخَـاءِ مِـنَ النَّـا سِ وَفِـي خِلَّـةِ الوَفَـــاءِ لَقِلَّـــهُ
فَالْبَسِ النَّاسَ مَا اسْتَطَعْتَ عَلَى النقَـ ـــصِ وَإِلاَّ لَمْ تَسْـــتَقِمْ لَـكَ خِلَّـهْ

وأولى مراحل قبول الصاحب على العلات غضُّ الطرف عن عثراته والتغافل في فطنة بغرض التألف، وفاء للصحبة. فإن التقاط الغلط وتضخيمه من شيم اللئيم. قـــال أكثم بن صيفي[٢١٥]: من شدد نفر، ومن تراخى تألف، والشرف في التغافل.

وقال شبيب بن شيبة[٢١٦]: الأريب العاقل هو الفطن المتغـــافل. وقـــال عبيـــد المدائني، وينسب البيتان لكثير كذلك[٢١٧]:

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَـــنْ صَدِيْقِـــهِ وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيْهِ يَمُتْ وَهُوَ عَـــاتِبُ

---

[٢١٣] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١٧.

[٢١٤] المصدر نفسه، ص٢٦٨.

[٢١٥] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٦٨.

[٢١٦] المصدر نفسه، ص٢٦٨.

[٢١٧] السلمي، آداب الصحبة، ص٦٠

www.mtenback.com

وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْها وَلاَ يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

وأنشد ثعلب[٢١٨]:

أُغَمِّضُ عَيْنِي عَنْ صَدِيْقِي تَعَمُّدًا ... كَأَنِّي بِمَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ جَاهِلُ

وَمَا بِي جَهْلٌ غَيْرَ أَنَّ خَلِيْقَتِي ... تُطِيْقُ احْتِمَالَ الكُرْهِ فِيْمَا يُحَاوِلُ

ثم يأتي بعد ذلك الصفح والعفو، فإنهما مزيلان للضغائن مُذهبان للمآخذ. والعتاب والتقريع والتأنيب مميتة للمحبة، سائقة إلى الهجران. قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢١٩] وقال تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[٢٢٠]. وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ﴾[٢٢١]. وقال الفضيل بن عياض: الفتوة[٢٢٢]: العفو عن عثرات الإخوان. وقيل لأبي سفيان بن حرب[٢٢٣]: ما بلغ بك من الشرف ما ترى؟ قال: ما خاصمت رجلاً قط إلا جعلت للصلح بيني وبينه موضعًا. وقال محمود الوراق[٢٢٤]:

لاَ بِرَّ أَعْظَمُ مِنْ مُسَاعَدَةٍ ... فَاشْكُرْ أَخَاكَ عَلَى مُسَاعَدَتِهْ

وَإِذَا هَفَا فَأَقِلَّهُ هَفْوَتَهُ ... حَتَّى يَعُودَ أَخًا كَعَادَتِهْ

---

[٢١٨] المرجع نفسه، ص٦٠

[٢١٩] سورة فصلت: ٣٤.

[٢٢٠] سورة آل عمران: ١٣٤.

[٢٢١] سورة الحجر: ٨٥.

[٢٢٢] السلمي، آداب الصحبة، ص٤٦.

[٢٢٣] السلمي، آداب الصحبة، ص١١٥.

[٢٢٤] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٢٠٥.

www.mtenback.com

فَالصَّفْحُ عَــنْ زَلَــلِ الصَّدِيــقِ وإِنْ أَعْيَــاكَ خَــيْرٌ مِــــنْ مُعَانَدَتِــــهْ

وقد بلغت سماحة النفس والحلم ببعضهم مبلغًا كبيرًا قال شاعر[٢٢٥]:

إِذَا رَأَيْتُ ازْوِرَارًا مِــنْ أَخِــي ثِقَــةٍ ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرَحْبِ الْأَرْضِ أَوْطَانِي

فَإِنْ صَدَدْتُ بِوَجْهِي كَــيْ أُكَافِئَــهُ فَالعَيْنُ غَضْبَى وَقَلبِي غَــيْرُ غَضْبَــانِ

وكتب رجل إلى صاحب له[٢٢٦]:

لَئِــنْ سَــاءَنِي أَنْ نِلتَنِــي بِمَسَــاءَةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّــي خَطَــرْتُ بِبَالِكَــا

ومن الناس من يرى ترك الإخوان - ما نفروا - أنفع وأصلح؛ فإن من الزلات ما لا يحتمل التأول، ولا تطيق العين الغمض عنه.

قال الشافعي[٢٢٧]: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان، وقال بعض الحكماء[٢٢٨] رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس، وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة. ومن الغريب دعوة نصير بن أحمد الخبزأرزي إلى التحول السريع عن الصاحب غير الملائم والبحث عن بديل له معللاً ذلك بكثرة الناس الذين لا يعدم المرء منهم صاحبًا فيقول[٢٢٩]:

صِلْ مَنْ دَنَــا وَتَنَــاسَ مَــنْ بَعُــدَا لاَ تَكْرَهَــنَّ عَلَــى الهَــوَى أَحَــدَا

قَــدْ أَكْــثَرَتْ حَــوَّاءُ إِذْ وَلَــدَتْ فَــإِذَا جَفَــا وَلَــدٌ فَخُــذْ وَلَــدَا

وقال ابن أبي خازم[٢٣٠]:

---

[٢٢٥] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠٩.

[٢٢٦] المصدر نفسه، مج٣ ، ج٧، ص١٠٩.

[٢٢٧] الغزالي: أحياء علوم الدين، ج٢، ص١٨٥.

[٢٢٨] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٣٢٨.

[٢٢٩] المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٨.

[٢٣٠] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠٩.

www.mtenback.com

خُـذْ مِـنَ الدَّهْـرِ مَـا كَفَـى وَمِـنَ العَيْـشِ مَـا صَفَـا

وقال أبو العلاء المعري[٢٣١]:

مَتَى يَصْرِمِ الخِلُّ المُسِيْءُ فَـلاَ تُـرَعْ فَأَفْضَلُ مِـنْ وَصْـلِ اللَّئِيْـمِ قِـلاَهُ

وَكَمْ غَيَّبَ الْإِلْـفُ الشَّـقِيْقُ أَلِيفَـهُ فَرِيْـعَ لَـهُ الْأَيَّـامَ ثُـمَّ سَـلاَهُ

ومن كرم التجاوز إقلال المعاتبة؛ فالإكثار منها سبب للقطيعة، وتركها بالكلية دليل على قلة الاكتراث بأمر الصاحب، والتوسط مساعد على استدامة المحبة، ووسيلة لاستبقاء الصلة، والمسامحة والتغاضي الدائمان يضيعان الإصلاح الذي ربما يحصّل بالعتاب. قال بعض الحكماء[٢٣٢]: لا تكثرنّ معاتبة إخوانك فيهون عليهم سخطك.

وقال منصور النمري[٢٣٣]:

أَقْلِلْ عِتَابَ مَـنِ اسْـتَرَبْتَ بِـوِدِّهِ لَيْسَـتْ تُنَـالُ مَـوَدَّةٌ بِعِتَـابِ

وقال بشار بن برد[٢٣٤]:

إِذَا كُنْتَ فِي كُـلِّ الْأُمُـورِ مُعَاتِبًـا صَدِيْقَكَ لَمْ تَلْـقَ الَّـذِيْ لاَ تُعَاتِبُـهْ

وقال شاعر[٢٣٥]:

خُـذْ مِـنْ خَلِيِّـكَ مَـا صَفَـا وَدَعِ الَّـذِي فِيْـهِ الكَـدَرْ

فَـالعُمْرُ أَقْصَـرُ مِـنْ مُعَـا تَبَـةِ الخَلِيْـلِ عَلَـى الغِـيَرْ

---

(٢٣١) غالي، حديقة الصداقة والصديق، ص٦٧.

(٢٣٢) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٦٥.

(٢٣٣) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٦٥.

(٢٣٤) المصدر نفسه، ص٢٦٥.

(٢٣٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص١٨٥.

www.mtenback.com

ومن كرم التجاوز قبول العذر. والكريم يقبل عذر صاحبه صادقًا فيه أو كاذبا؛ فإظهار العذر بالندم والخجل توبة وإنابة. بل إن الكريم ليلتمس لصاحبه العذر قبل أن يُلجئه إلى ذلّ التحريف والكذب. وليس من المروءة أن يردّ الصاحب صاحبه خائبًا وهو يسأل العفو متعللاً له بالعذر متشفعًا بالإقرار. وقد قيل[٢٣٦] ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرًا، فإن لم يقبله قلبك فردّ اللوم على نفسك، وقل لقلبك: ما أقساك! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرًا فلا تقبله، فأنت المعيب لا أخوك.

وقال شاعر[٢٣٧]:

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّدِيْقُ إِلَيْكَ يَوْمًا ... مِنَ التَّقْصِيْرِ عُذْرَ أَخٍ مُقِرّ

فَصُنْهُ عَنْ عِتَابِكَ وَاعْفُ عَنْهُ ... فَإِنَّ الصَّفْحَ شِيْمَةُ كُلِّ حُرّ

وقال بعضهم[٢٣٨]:

اقْبَلْ مَعَاذِيْرَ مَنْ يَأْتِيْكَ مُعْتَذِرًا ... إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا

فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ أَرْضَاكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيْكَ مُسْتَتِرًا

وقال الرضي[٢٣٩]:

اعْذُرْ أَخَاكَ عَلَى ذُنُوبِهِ ... وَاسْتُرْ وَغُضَّ عَلَى عُيُوبِهِ

وَاصْبِرْ عَلَى بَهْتِ السَّفِيْـ ... ـهِ وَلِلزَّمَانِ عَلَى خُطُوبِهِ

وَدَعِ الجَوَابَ تَفَضُّلاً ... وَكِلِ الظُّلُومَ إِلَى حَسِيْبِهِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الحِلْمَ عِنْدَ الغَيْـ ... ـظِ أَحْسَنُ مِنْ رُكُوبِهِ

---

[٢٣٦] المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٥.

[٢٣٧] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠٣.

[٢٣٨] السلمي، آداب الصحبة، ص١٠١.

[٢٣٩] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص٢٦٧.

www.mtenback.com

وقال بعض الشعراء[٢٤٠]:

إِذَا مَا امْرُؤٌ مِنْ ذَنْبِهِ جَاءَ تَائِبًا إِلَيْكَ فَلَمْ تَغْفِرْ لَهُ فَلَكَ الذَّنْبُ

واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى البرمكي، فقال جعفر قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك[٢٤١].

وقال شاعر[٢٤٢]:

لَيْسَ الصَّدِيْقُ الَّذِي إِنْ زَلَّ صَاحِبُهُ يَوْمًا رَأَى الذَّنْبَ مِنْهُ غَيْرَ مَغْفُورِ

وَإِنْ أَضَاعَ لَهُ حَقًّا فَعَاتَبَهُ فِيهِ أَتَاهُ بِتَزْوِيقِ المَعَاذِيْرِ

إِنَّ الصَّدِيْقَ الَّذِي أَلْقَاهُ يَعْذُرُ لِي مَا لَيْسَ صَاحِبُهُ فِيهِ بِمَعْذُوْرِ

وقد يكون بين الصاحبين اختلاف بالمدركات وبعد في المعرفة، حيث يعرف أحدهما ما لا يعرفه الآخر، فيكون لذلك الاختلاف بينهما، وهذا ما عبر عنه الخليل ابن أحمد حين قال[٢٤٣]:

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي أَوْ كُنْتُ أَجْهَلُ مَا تَقُوْلُ عَذَلْتُكَ

لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَ

إن جلّ المعاذير عند العرب ملفّقة و مكذوبةوفق ما استشففنا من آثارهم ولذا فإنهم يتخطون العذر نفسه إلى القبول دون النظر فيه، إذ إن تفنيد العذر يقود إلى التعنيف والتقريع وهو ما يبطل فضيلة القبول. وقد طلب بعضهم العفو والصفح دون أن

---

(٢٤٠) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠٤.

(٢٤١) المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص١٠٤.

(٢٤٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٢٠١.

(٢٤٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠٣.

www.mtenback.com

يبسط عذرًا مخافة أن يُتّهم بالتحريف. قال مطرف[٢٤٤]: المعاذر مكاذب. ويقال[٢٤٥]: ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنبًا. وقال شاعر[٢٤٦]:

لاَ تَـــرْجُ رَجْعَـــةَ مُذْنِـــــبٍ خَلَـــطَ احْتِجَاجًـــا بِـــاعْتِذَارِ

وقال بعض البلغاء[٢٤٧]: من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته، ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته. وقال أعرابي لابن عمْ له[٢٤٨]: سأتخطى ذنبك إلى عذرك، وإن كنت من أحدهما على يقين ومن الآخر على شك، ليتم المعروف مني إليك، ولتقوم الحجة مني عليك. وقال بعض الشعراء[٢٤٩]:

اَلعُذْرُ يَلحَقُهُ التَّحْرِيْـــفُ وَالكَـــذِبُ وَلَيْسَ فِي غَيْرِ مَا يُرْضِيْكَ لِـــي أَرَبُ

وَقَدْ أَسَأْتُ فَبِالنُّعْمَى الَّتِـــي سَـــلَفَتْ إِلاّ مَنَنْـــتَ بِعَفْـــوٍ مَالَـــهُ سَـــبَبُ

وقال شاعر[٢٥٠]:

فَلاَ تَعْذُرَانِـــي فِـــي الإِسَـــاءَةِ إِنَّـــهُ شِرَارُ الرِّجَالِ مِـــنْ يُسِـــيءُ فَيُعْـــذَرُ

يغض الصاحب طرفه عن زلة صاحبه، فإن لم يمسك عاتبه، ثم يعفو ويصفح ويقبل العذر، فإن لم يُجد كل ذلك عمد إلى الهجر علاجًا أخيرًا، إذ إن آخر الدواء الكي. ويكون هذا الهجر بترك تكليمه، والكف عن زيارته ولقائه، والصد عنه والإعراض، وترك كل ما تعود عليه من صاحبه مما كان يبعث السرور في نفسه، حتى

---

[٢٤٤] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص١٠١.

[٢٤٥] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص١٠١.

[٢٤٦] المصدر نفسه، مج٣، ج٧، ص١٠١.

[٢٤٧] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٢، ص٣٢٩.

[٢٤٨] المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٦.

[٢٤٩] المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣٠.

[٢٥٠] ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج٣، ج٧، ص١٠١.

www.mtenback.com

يشعر بالندم على التفريط في حقوق صاحبه. ولا يكون هذا الهجر بالكلية، وإنما بالقدر المناسب للحالة، فهو إنما نشأ عن رغبة في العلاج لا استرسالاً في دواعي الغضب، وعلى هذا بنى الشاعر رأيه إذ يقول[٢٥١]:

هَجَرْتُكَ لاَ قِلَى مِنِّي وَلَكِنْ ... رَأَيْتُ بَقَاءَ وُدِّكَ فِي الصُّدُودِ
كَهَجْرِ الصَّائِمَاتِ الوِرْدَ لَمَّا ... رَأَتْ أَنَّ المَنِيَّةَ فِي الوُرُوْدِ
تَفِيْضُ نُفُوْسُهَا ظَمَأً وَتَخْشَى ... حِذَارًا وَهْيَ تَنْظُرُ مِنْ بَعِيْدِ
تَصُدُّ بِوَجْهِ ذِي البَغْضَاءِ عَنْهُ ... وَتَرْمِيْهِ بِأَلْحَاظِ الوَدُوْدِ

وقال بعضهم[٢٥٢]:

جَعَلُوا الحَجَّ حُجَّةً لِلفِرَاقِ ... وَاسْتَحَلُّوا تَنَاقُضَ المِيْثَاقِ
فَوْقَ تِلكَ الجِمَالِ مَنْ لَوْ أَقَامُوا ... لَحَمَلْنَاهُمُ عَلَى الأَعْنَاقِ
وَتَمَنَّيْتُ أَنْ يَكُوْنَ بَعِيْدًا ... وَالَّذِي بَيْنَنَا مِنَ الوُدِّ بَاقِ
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفِ هَجْرٍ ... وَفِرَاقٌ يَكُوْنُ خَوْفَ فِرَاقِ

صحبة العلم:

إن للعلم والعلماء فضلاً معلوما خصه الله في كتابه العزيز بآيات كثيرة، وأبان النبي عليه السلام هذا الفضل في أحاديثه، وأفاضت آثار العرب في ذلك. ولاشك أن طلب العلم وبذله يقتضيان الصحبة والملازمة والمجالسة، فالأستاذ والتلميذ كلاهما تارك للعزلة ومقبل على المخالطة بسبب السعي إلى نيل الفضل في التعليم أو التعلم. والصحبة بينهما منعقدة لا محالة. وقد تعددت في آثار العرب أشراطها وآدابها

---

[٢٥١] السلمي، آداب الصحبة، ص٩٧.

[٢٥٢] المرجع نفسه، ص٩٧.

www.mtenback.com

وحقوقها، وتعدد كل ذلك في حق التلميذ والأستاذ كليهما توسُّلاً إلى تحصيل القدر الأكبر من الفائدة. وتعدد كل ذلك أيضًا في حق مجالس العلم وحلق الدرس، وشمل كل تفاصيلها من الجلسة وإلقاء الدرس والإنصات والسؤال والإجابة ورفع الصوت وخفضه وما إلى ذلك. وتبين الآثار علوًا في رتبة العالم ترفعه فوق أهل المناصب، وشرفًا يزيد على شرف الملوك. وتبين نبل غاية طالب العلم وشرف مقصده وكرامة مسعاه التي لا تدانيها كرامة. وتصف الآثار مجالس العلم بأنها أفضل المجالس وتضع لها آدابًا وحرمات.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٢٥٣].

وقال علي بن أبي طالب[٢٥٤] لكميل: يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال،والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزداد بالإنفاق. وقال أيضًا:

مَاالفَخْرُ إلاَّ لأَهْلِ العِلمِ إنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلاَّءُ

وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالجَاهِلُوْنَ لأَهْلِ العِلمِ أَعْدَاءُ

فَفُزْ بِعِلمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أَبَدًا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلمِ أَحْيَاءُ

وقال أبو الأسود[٢٥٥]: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وقال أبو بكر بن دريد[٢٥٦]:

العَالِمُ العَاقِلُ ابْنُ نَفْسِهِ ... أَغْنَاهُ جِنْسُ عِلمِهِ عَنْ جِنْسِهِ

---

[٢٥٣] سورة المجادلة: ١١.

[٢٥٤] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٧.

[٢٥٥] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٧.

[٢٥٦] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١١٤.

www.mtenback.com

كُنِ ابْنَ مَنْ شِـئْتَ وَكُـنْ مُؤَدَّبَـا فَإِنَّمَـا الْمَـرْءُ بِفَضْـلِ كَيْسِـهِ
وَلَيْـسَ مَـنْ تُكْرِمُـهُ لِغَـيْرِهِ مِثْـلُ الَّـذِي تُكْرِمُـهُ لِنَفْسِـهِ

صحبة التلميذ الأستاذ:

من واجب المتعلم أن يُحْسِنَ صحبة معلمه ويؤدي واجباتها، وبذلك يحصل الفوائد الجزيلة وينال مبتغاه من جلوسه عنده. ولكي يحسن المتعلم هذه الصحبة ويرعاها لا بد له من آداب يلتزمها في معاشرة أستاذه، وآداب يلتزمها في أخذه العلم عنه. ورأس آدابه في معاشرته أستاذه أن يوقره ويحفظ له محله من الإجلال، ويرعى له فضله وشرف مكانته. ومهما كان المتعلم شريفًا وعالي المكانة بسبب المنصب أو الجاه أو النسب فإنه في حضرة أستاذه دونه مكانة لا شك، وإن كان الأستاذ خامل الذكر. وهذا الإكرام هو طريق استخراج الفوائد وجني الثمرات. ولا يتبسط المتعلم مع أستاذه مهما تقدمت بهما الصحبة، فهذه صحبة مختصة بما لا يجري على غيرها. قال بعض الشعراء[٢٥٧]:

إِنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّبِيْـبَ كِلاَهُمَـا[٢٥٨] لاَ يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَـا لَـمْ يُكْرَمَـا
فَاصْبِرْ لِدَائِـكَ إِنْ أَهَنْـتَ طَبِيْبَـهُ وَاصْبِرْ لِجَهْلِكَ إِنْ جَفَـوْتَ مُعَلِّمَـا

وقال أبو بكر بن دريد[٢٥٩]:

لاَ تَحْقِـرَنْ عَالِمًـا وَإِنْ خَلَقَـتْ أَثْوَابُـهُ فِـي عُيُـوْنِ رَامِقِـهِ
وَانْظُـرْ إِلَيْـهِ بِعَيْـنِ ذِي أَدَبٍ مُهَـذَّبِ الـرَّأْيِ فِـي طَرَائِقِـهِ
فَالْمِسْـكُ بَيْنَـا تَـرَاهُ مُمْتَهَنًـا بِفِهْـرِ عَطَّـارِهِ وَسَـاحِقِهِ

---

[٢٥٧] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١١٣.

[٢٥٨] هكذا في المصدر، والوجه النصب.

[٢٥٩] المصدر نفسه، ص١١٣.

www.mtenback.com

حَتَّى تَـــرَاهُ فِـــيْ عَـــارِضَي مَلِـــكٍ وَمَوْضِـــعِ التَّـــاجِ مِـــنْ مَفَارِقِـــــهِ

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[٢٦٠]: لا يعرف فضل أهل العلـــم إلا أهل الفضل. وقال بعضهم مقدمًا حق الأستاذ على حق الوالد[٢٦١]:

يَافَـــاخِرًا لِلسِّـــفَاهِ بِالسَّـــلَفِ وَتَارِكًـــا لِلعَـــلاَءِ وَالشَّـــرَفِ

آبَـــاءُ أَجْسَـــامِنا هُـــمُ سَـــبَبٌ لأَنْ جُعِلنَـــا عَرَائِـــضَ التَّلَـــفِ

مَـــنْ عَلَّـــمَ النَّـــاسَ خَـــيرُ أبٍ ذَاكَ أَبُو الـــرُّوحِ لاَ أَبُـــو النُّطَـــفِ

ويحسن التلميذ صحبة أستاذه بألا يعترض عليه وألا يعيبه ولا يغالبه بالحجة،ولا يظهر الاستكفاء منه والاستغناء عنه. وربما يملأ العجب قلب التلميذ، لحدة في ذكائـــه، وسرعة في حفظه، ونبوغ في أخذه العلوم، فيعمد إلى استجهال أستاذه واستصغار قـــدر العلم عنده. وهذا من كفران النعم الذي يحيق بالأستاذ بين حين وآخـــر في مواضـــع وأزمان مختلفة. قال صالح بن عبد القدوس[٢٦٢]:

وَإِنَّ عَنَـــاءً أَنْ تُعَلِّـــمَ جَـــاهِلاً فَيَحْسَبُ جَهْلاً أَنَّـــهُ مِنْـــكَ أَعْلَـــمُ

مَتَى يَبْلُـــغُ البُنْيَـــانَ يَوْمًـــا تَمَامَـــهُ إِذَا كُنْـــتَ تَبْنِيـــهِ وَغَـــيْرُكَ يَهْـــدِمُ

ويتطلب أخذ العلم تذللاً من التلميذ لأستاذه وصبراً عليه حتى يفوز بما يســـعى إليه من العلم ويستخلص من الأستاذ مكنون علمه. قال بعض الحكماء[٢٦٣]: مـــن لم يحتمل ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبدًا.

---

(٢٦٠) المصدر نفسه، ص١١٣.

(٢٦١) المصدر نفسه، ص١١٥.

(٢٦٢) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١١٥.

(٢٦٣) المصدر نفسه، ص١١٣.

www.mtenback.com

والسؤال مفتاح العلم، وله آداب تحفظ للتلميذ توقير أستاذه وإحسان صحبته، فلا يكون السؤال إعناتًا للأستاذ وامتحانًا له ورغبة من التلميذ في إظهار مواطن ضعف أستاذه. كما لا يكون بغرض إظهار النباهة فخرًا وتعاظمًا على الأستاذ أو زملاء الدرس. ولا يكون من غير ضرورة أو فيما هو واضح بهدف إظهار المتابعة والفهم. وإنما يكون السؤال في موضعه استزادة في المعلومات أو استيضاحًا لما استغلق فهمه من الدرس. قيل لابن عباس رضي الله عنهما[٢٦٤]: بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول. وقال أبو سليمان الغنوي[٢٦٥]:

فَسَلِ الفَقِيْهَ تَكُنْ فَقِيْهًا مِثْلَهُ ... لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرِ

وَإِذَا تَعَسَّرَتِ الأُمُوْرُ فَأَرْجِهَا ... وَعَلَيْكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَعْسُرِ

قال ابن حزم في كتاب (الأخلاق والسير) يخاطب من يترددون على مجالس العلم[٢٦٦]: «صفة سؤال المتعلم أن يسأل عما لا يدري، لا عما يدري، فإن السؤال عما تدريه قلة عقل، وشغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه. فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفاية فاقطع الكلام، فإن لم يجبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم،فقل له:« لم أفهم»، واستزده، فإن لم يزدك بيانًا وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد، فأمسك عنه، وإلا حصلتَ على الشر والعداوة، و لم تحصل على ما تريده من الزيادة. وتراجع مراجعة العالم، وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقصه نقصًا بينًا، فإن لم يكن ذلك عندك، و لم يكن عندك إلا تكرار قولك، فأمسك،لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائدٍ ولا تَعلُّم».

---

[٢٦٤] المصدر نفسه، ص١١٨.

[٢٦٥] المصدر نفسه، ص١١٨.

[٢٦٦] المليحي، حسن حميس: الأدب والنصوص لغير الناطقين بالعربية، الرياض، عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود، (١٩٨٩م)، ص٢٢٥.

www.mtenback.com

والصحبة بين الأستاذ وتلميذه منعقدة لا محالة، إذ يقتضي التعليم جلوسه إلى تلامذته، وملازمتهم في مجالس الدرس وحلقه. ولا بد للمعلم من جملة من الآداب والوظائف يلتزمها وهو يؤدي هذه المهمة الجليلة. ونجاح المعلم في مهمته والقيام بها على وجهها الأكمل يحقق له تمام الشرف في الدنيا وجزيل الثواب في الآخرة. وأما الانحراف بمهمة التعليم إلى الإفساد - في أي من صوره - فهو الانزلاق إلى هاوية سحيقة، لأن إفساد العالم أكبر إثمًا من إفساد الجاهل؛ فالمعلم متبوع ومقتدى به، ومظنون صلاح ما يأتي وفساد ما يدع. والأستاذ يحسن عشرة تلميذه بقدر التزامه وظائف التعليم وآدابه.وهذه الوظائف والآداب منها ما هو خاص بسلوك المعلم في نفسه بما يبرز القدوة الحسنة، ومنها ما هو خاص بإدارة مجالس التعليم وحلقه بما يحقق أفضل الثمرات من الجهد المبذول والوقت المقطوع.

ويحفظ الأستاذ صحبة تلميذه ويحسن عشرته إن هو بذل له العلم و لم يبخل عليه بما يحسن. فهو إنما حظي بثقة تلميذه الذي جلس له، فلا يجوز له خداعه ومنع العلم عنه أو منحه القليل وحجب الدرر. ولو فعل ذلك معلموه هو لما وصل إليه العلم، وإنما انتقل العلم بإخلاص المعلمين في بذله. ويجب أن يدرك المعلم أنه ينتفع بالتعليم، إذ يحصل الثواب الجزيل ببذل العلم ويقترف الإثم العظيم بحجبه. قال علي بن أبي طالب[٢٦٧]: ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يُعلّموا. وينتفع المعلم بتكرار الدروس إتقان الحفظ، وبأسئلة التلميذ - ولاسيما النابه - زيادة في العلم. قال ابن المعتز في منثور الحكم[٢٦٨]: النار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن يخمدها ألا تجد حطبًا، كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس، ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه، فإياك والبخل بما تعلم. وقال بعض العلماء: علم علمك، وتعلم علم غيرك، فإذا أنت قد علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت، وقال بعض

---

[٢٦٧] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١٣١.

[٢٦٨] المصدر نفسه، ص١٣٢.

www.mtenback.com

الحكماء[٢٦٩]: إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزينه البذل.

وتحصل الفائدة القصوى من التعليم إذا كان المعلم لين الجانب، ورفيقًا بتلميذه،مشفقًا عليه، يجريه مجرى بنيه في قصده بالفائدة، وطلب الشرف له. ويكون ذلك أدعى لتعلق التلميذ به والانكباب على الأخذ عنه. وتعنيف التلميذ، أو استصغاره إن كان مبتدئًا، أو الطعن في قدراته على الفهم والحفظ وحسن السؤال، مدعاة لانصرافه عن الدروس أو حضورها مع انطواء نفسه على شعور بالضيم يقلل القدر المستفاد منها. وأدب المعلم مع تلميذه يوجب عليه تحبيب التلميذ في العلم لا الانصراف عنه، وترغيبه لا تنفيره، وبعث الرجاء في نفسه لا تيئيسه. ويدخل في ذلك توجيه التلميذ ونصحه وبذل المجهود في رفده بالعلم والأخلاق وحسن السلوك.

يطلب في المعلم أن يتحلى بالفراسة لمعرفة أحوال تلامذته؛ فإن إحسان عشرتهم يتطلب ذلك؛ لإعطاء كل منهم قدر طاقته، فمن ظهرت جودة ذكائه وقوة خاطره وسرعة استيعابه فلا بد أن يقبل عليه المعلم بالكثير والأعلى في مدارج الفهم. ومن كان حظه من الفطنة يسيرًا، فلا يحمل عليه المعلم بالكثير فيظلمه، بل يتدرج معه باليسير ولا يحرمه. وقد قيل[٢٧٠]: كِل لكل امرئ بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار. وحكي أن[٢٧١] تلميذًا سأل عالمًا عن بعض العلوم فلم يفده، فقيل له: لم منعته فقال: لكل تربة غرس ولكل بناء أس. وقال شاعر[٢٧٢]:

---

[٢٦٩] المصدر نفسه، ص١٣١.

[٢٧٠] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٥٧.

[٢٧١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١٣٤.

[٢٧٢] الشافعي، الإمام أبو عبد الله بن محمد بن إدريس: ديوان الإمام الشافعي، بيروت، شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم ،(د.ت)، ص١٠٩.

www.mtenback.com

فَـإِنْ لَطَـفَ اللهُ اللَّطِيْـفُ بِلُطْفِـهِ وَصَادَفْتُ أَهْلاً لِلعُلُـومِ وَلِلحِكَـمْ
نَشَرْتُ مُفِيْـدًا وَاسْـتَفَدْتُ مَـوَدَّةً وَإِلاَّ فَمَخْـزُونٌ لَـدَيَّ وَمُكْتَتَـمْ
فَمَنْ مَنَحَ الجُهَّـالَ عِلمًـا أَضَاعَـهُ وَمَنْ مَنَعَ المُسْـتَوْجِبِيْنَ فَقَـدْ ظَلَـمْ

ولا يقتصر تفكر المعلم في أحوال تلامذته على النظر في قدرات العقل فحسب، بل يتعداها إلى أحوال النفس، فيتعرف على دوافعهم للتعلم، فيعلم من يدفعه للتعلم رغبة في تحصيل الجاه والمنزلة،ومن يدفعه غرض لنيل المنصب، ومن يقصد بالتعلم وجه الله ليزداد معرفة بأحوال الكون والدنيا والآخرة، ويرقى به من طباع نفسه، وينفع به خاصتة ومن حوله. ومن يطلب العلم للجاه والمنزلة أو المنصب لا يخشى عليه، إذ قد يعطفه العلم إلى الدين والنفع العام، وإن لم يبتدئه بهذه النية. وقد حكي عن سفيان الثوري أنه قال[٢٧٣]: تعلمنا العلم لغير الله تعالى، فأبى أن يكون إلا لله. وقال عبد الله ابن المبارك[٢٧٤]: طلبنا العلم للدنيا، فدلنا على ترك الدنيا.

ومن إحسان عشرة الأستاذ تلميذه أن يكون له قدوة حسنة، فإنه متبوع من تلميذه ومقلده.ولا بد أن يصدّق عمله قوله،فإنه في ثنايا درسه يكون دائم التوجيه والنصح لتلميذه بالاستمساك بمكارم الأخلاق وتهذيب الطبع. وهذا ما يشار إليه في أدب العلم باقتران العلم بالعمل؛ فقد ذموا العلماء غير العاملين بعلمهم وسموهم أحيانًا علماء الدنيا وأحيانًا علماء السلطان، بحسب الجهة التي ينصرفون إليها بعلمهم. قال ﷺ:«لا تَعَلَّموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء، ولا تخيّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار»[٢٧٥] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢٧٦]: إذا زل العالم زل

---

[٢٧٣] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١٣٣.

[٢٧٤] المصدر نفسه، ص١٣٣.

[٢٧٥] ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية، (١٩٨٣م)، ج١، ص٢٢٩/٤٦.

[٢٧٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص٦٤.

www.mtenback.com

بزلته عالم من الخلق. وقال الحسن رحمه الله[٢٧٧] لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء. وقال شاعر[٢٧٨]:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعَظَّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

صحبة السفر:

السفر في آثار العرب إما لأغراض دنيوية كالسفر من أجل الكد والكسب، أو زيارة الأقارب والأصدقاء والمعارف وسوى ذلك من أغراض الدنيا المختلفة. أو لطلب العلم ومقابلة العلماء والتحقق من المسائل وأبواب العلم. والجامع بين كل هذه الأنواع من الأسفار أنها كانت لا بد أن تتم عندهم في رفقة وصحبة. وتجمع هذه الرفقة الصاحب والأنيس والحارس والدليل والخادم وغيرهم ممن يحتاج المسافر إليهم.

وقد حث العلماء والحكماء على السفر والرحلة والتغرب، والضرب في طول الأرض وعرضها من أجل المطالب الشريفة والمساعي النبيلة، واكتساب تجارب الأيام ومعارف الخلق وطبائعهم. قيل في أبيات شهيرة تنسبها بعض المراجع للإمام الشافعي[٢٧٩]:

مَا فِي المُقَامِ لِذِي عَقْلٍ وَذِي أَدَبِ ... مِنْ رَاحَةٍ فَدَعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّنْ تُفَارِقُهُ ... وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ

إِنِّي رَأَيْتُ وُقُوفَ المَاءِ يُفْسِدُهُ ... إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

---

[٢٧٧] المصدر نفسه، ج١، ص٥٩.

[٢٧٨] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص١٣٨.

[٢٧٩] الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، ص٣٩.

www.mtenback.com

وَالأُسْدُ لَوْلا فِرَاقُ الأَرْضِ مَا افْتَرَسَتْ ... وَالسَّهْمُ لَوْلاَ فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ
وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ فِي الفُلْكِ دَائِمَةً ... لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
وَالتِّبْرُ كَالتُّرْبِ مُلقَى فِي أَمَاكِنِهِ ... وَالعُوْدُ فِي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنْ الحَطَبِ
فَإِنْ تَغَرَّبَ هَذَا عَزَّ مَطْلَبُهُ ... وَإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَم عَزَّ كَالذَهَبِ

وقال الشافعي[٢٨٠]:

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ العُلاَ ... وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيْشَةٍ ... وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

وصحبة السفر وإن كانت موقوتةً بزمان ومحدودةً بمكان إلا أن لها أيضًا حقوقها وآدابها. فمن أمثال العرب الشائعة: «الرفيق قبل الطريق»، وذلك لما كان يكتنف السفر من مخاطر تزداد بانفراد المسافر وتقل بزيادة الرفقة. ولما كان السفر قد تطول أيامه احتيج فيه إلى الصاحب والأنيس المعين على قطع الوقت بالأنس الحميد والكلام المفيد. ويستعان في السفر على اختلاف الطرق واختلاط الاتجاهات بالأدلاء الخبراء بمطالع النجوم ومسارات الرياح، قال ﷺ: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده»[٢٨١].

إن إحسان اختيار رفقة السفر أول أسباب التهوين من مشاقه المعتادة. فإذا أضيف إلى مشاقه الظاهرة من تعب البدن وتعب النفس بالبعد عن الأهل والولد سوء الرفقة تضاعف على المسافر الكدر والضجر، وإذا كان مطلوبًا من الرجل إحسان اختيار أصحابه في الحضر فإن ذلك في السفر أدعى. فما لا ينكشف من أخلاق الرجل في الحضر قد ينكشف في السفر بسبب تعرضه للمشقة والضجر. قال عمر بن الخطاب

[٢٨٠] الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، ص٦٠.

[٢٨١] أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب ١٣٥، حديث ٢٩٩٧.

www.mtenback.com

رضي الله عنه لرجل زكّى عنده بعض الشهود[٢٨٢]: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه؟ فقال: لا. فقال: ما أراك تعرفه.

ومن السنة أن تجعل رفقة السفر واحدًا من بينها أميرًا عليها حتى لا تختلف عليهم الآراء وينشأ التنازع. وتلتزم الرفقة طاعة الأمير حتى يحسن قيادتها، ويلتزم الأمير الرفق بهم وإيثارهم والنظر إلى مصلحتهم. قال رسول الله ﷺ:«إذا كان ثلاثة في السفر فَليؤمّروا أحدهم»[٢٨٣] ونقل عن عبد الله المروزي أنه صحبه أبو علي الرياطي فقال[٢٨٤]: على أن تكون أنت الأمير أو أنا، فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره، فأمطرت السماء ذات ليلة، فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء، يمنع عنه المطر، فكلما قال له أبو علي: لا تفعل، يقول: ألم تقل إن الإمارة مسلمة لي؟ فلا تتحكم علي ولا ترجع عن قولك، حتى قال أبو علي: وددت أني متُّ ولم أقل له أنت الأمير.

صحبة الإنسان غير الإنسان:

صحبة الإنسان الحيوان

صحب العربي أنواعًا من الحيوان وأكرم صحبتها وأعز مكانتها. وهي الأنعام التي رعاها وعاش على ألبانها ولحومها، وأشاد بيته وصنع فرشه من أوبارها وجلودها. وهي الدواب التي ركبها واستخدمها في السفر والحرب والصيد. وكانت أنعامه الإبل والبقر والضأن والمعز،ودوابه الإبل والخيل والحمير والبغال.

وللإبل عند العرب مكانة عظيمة؛ فهي إلى جانب أنها مركبه ومحمل متاعه مظهر من مظاهر الثراء والمكانة المرموقة متى كثرت. وارتبطت الإبل عند عرب

---

[٢٨٢] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٤٦.

[٢٨٣] البيهقي، إمام المحدثين الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي: السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ج٥، ص٢٥٧.

[٢٨٤] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٥٢.

www.mtenback.com

الجاهلية بنوع من التشريف والتقدير. وقد دلنا على ذلك القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾[٢٨٥] وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[٢٨٦]. والبحيرة ابنة السائبة، والسائبة ناقة تابعت في الحمل اثنتي عشرة سنة وجميع صغارها إناث ليس فيها ذكور، فتسيب ولا يركب ظهرها، ولا ينتف وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف. فإذا نتجت بعد ذلك إناثًا أيضًا شقت آذانها وخلي سبيلها، وهي البحيرة. وأما الوصيلة فشاة نتجت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيها ذكر. والحامي فحل الإبل تنتج له عشر إناث متتابعات ليس فيها ذكر، وعندئذ يحمي ظهره. وفي يوم البسوس روي أن قومًا أغاروا على إبل جربة بن أوس فاطردوها غير ناقة حرام،فركبها ولحقهم، فمنعوه من ركوبها، فقال:«يركب حرامًا من لا حلال له» فأرسلها مثلاً.

ولعل هذا التقدير للإبل ولا سيما الناقة فيه شي مما وعته خواطرهم وحفظته ذاكراتهم، وفي قصة حرب البسوس دليل آخر على مكانة الناقة عندهم. وكان للبسوس ناقة يقال لها السراب. وبينما كانت ترعى مع فصيلها، قتل كليب فصيلها ورماها في ضرعها فشكت البسوس ذلك لابن أختها جساس فقتل كليبًا فثارت الحرب التي عرفت في أيام العرب بحرب البسوس وإذا كان للحرب سبب يتصل بالكرامة والثأر للضيف والجار، فإن مكانة الناقة لا تنكر في إضرام هذه الحرب.

كانت الإبل مركب العربي في السفر والترحال والسلم والحرب. وقطعت به الفيافي وهي تحمله ومتاعه في صحراء مقفرة من كلأ وماء لا يحتملها سواها من

---

[٢٨٥] سورة الأنعام: ١٣٨

[٢٨٦] سورة المائدة: ١٠٣.

www.mtenback.com

الدواب. وهي بعد سلسة القياد، رحبة المتن، محمل لما ثقل وكثر. وإن نفد زاده كان لبن الناقة طعامه الوحيد في صحرائه تلك التي يشح فيها الطعام. وبسبب هذه الصحبة والملازمة في السفر والحضر عرف العربي طباع الإبل ومزاجها،وقدر تلك الطباع وراعى ذلك المزاج إحسانًا لصحبة هذا الحيوان الأثير عنده.

ومع ما بلغته هذه المكانة للإبل عند العربي فإن مكانة الخيل عنده لا تدانيها مكانة. وهي الحيوان الذي طغى ذكر صحبته على ما عداه في آثار العرب في جاهليتهم وإسلامهم على حد سواء، مع اختلاف في المقاصد من اتخاذها. فمع الاتفاق في كلا العهدين على اتخاذها عدة للحرب والطعان إلا أن نوع الغارة ودوافعها اختلفا في الإسلام عنها في الجاهلية. وقد صانت العرب الخيل في الجاهلية وأكرمتها لما كان لهم فيها من القوة والمنعة والعزة والجمال. وبلغت بهم الصيانة هذه مبلغًا جعلهم يسوون الخيل بأنفسهم وأبنائهم، بل ويؤثرونها عليهم وينزلونها منزلة الحبيب والصاحب والقرين. قال ثعلبة بن عمرو الشيباني[٢٨٧]:

وَإِنَّ عُرَيْبًا وَإِنْ سَاءَنِي أَحَبُّ حَبِيْبٍ وَأَدْنَى قَرِيْبِ

وهو يرى أن فرسه عريب علق من قلبه بمكان أحب الأحباء وأقرب الأقربين. وهذا الفرس وإن كان يسيئه في بعض الأحايين إلا أن إساءته لا تعدو أن تكون زلة الحبيب المغتفرة وهفوته المتجاوزة. وقال خالد بن جعفر بن كلاب[٢٨٨]:

أَرِيْغُونِي إِرَاغَتَكُمْ فَإِنِّي وَحَذْفَةَ كَالشَّجَا تَحْتَ الوَرِيْدِ

أُسَوِّيْهَا بِنَفْسِي أَوْ بِجَزْءٍ وَأُلْحِفُهَا رِدَائِي فِي الجَلِيْدِ

---

[٢٨٧] آل إبراهيم، محمد الصالح، الخيل عند العرب، (د.ت)، ص١٧.

[٢٨٨] التيمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى، كتاب الخيل، القاهرة، (١٩٨٦م)، ص١١٦.

www.mtenback.com

وحذفة فرسه التي يلازمها ويسويها بنفسه أو بابنه جزء، فهي أثيرة لديه إلى هذا الحد. وهو وإن سواها بنفسه أو ابنه في صدر البيت الثاني فقد آثرها على نفسه في عجزه؛ حيث ذكر أنه يغطيها في البرد بردائه ويبقى بلا رداء.

ويقول متمم بن نويرة وهو يغدو للقنص على فرسه العظيمة وقد كانت مضناة متعبة، فبذل لها العلاج بسخاء إكرامًا لها وفاء لصحبته معها، إذ أنزلها من اهتمامه إنزال المحب حبيبه من الرعاية والاهتمام[٢٨٩]:

دَاوَيْتُهُ كُلَّ الدَّوَاءِ وَزِدْتُهُ بَذْلاً كَمَا يُعْطِي الحَبِيْبُ المُوْسِعُ

وقال الأسعر بن أبي حمران في فرسه[٢٩٠]:

خَلِيْلاَنِ مُخْتَلِفٌ شَأْنَا أُرِيْدُ العُلاَ وَيُرِيْدُ السَّمَنْ

وثمة مظهر آخر من مظاهر إكرامهم الخيل وإحسان صحبتها، ذلك أنهم كانوا يسقونها اللبن ويشربون الماء القراح. ويخصونها بالطعام ويبيتون الطوى. ويبقى العربي يعلل أطفاله الصغار الجياع الذين آثر عليهم الفرس. واحتل هذا المعنى حيزًا كبيرًا فيما قيل من الشعر في إكرام الخيل. قال عبيدة بن ربيعة التميمي وقد طلب منه أحد ملوك العرب فرسه سكاب.

أَبَيْتَ اللَّعْنَ[٢٩١] إِنَّ سِكَابَ عِلْقٌ نَفِيْسٌ لاَ تُعَارُ وَلاَ تُبَاعُ

مُفَدَّاةٌ مُكَرَّمَةٌ عَلَيْنَا يُجَاعُ لَهَا العِيَالُ وَلاَ تُجَاعُ

---

[٢٨٩] آل إبراهيم، الخيل عند العرب، ص٥٠.

[٢٩٠] ابن الكلبي، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، القاهرة دار الكتب المصرية، (١٩٤٦م)، ص١٠٩.

[٢٩١] آل إبراهيم، الخيل عند العرب، ص١٨.

www.mtenback.com

بلغ به إعزازه فرسه وحرصه على إكرام صحبتها أن يجيع عياله ليشبعها. وهي بعد مفداة بنفسه كما يفعل مع أعز الأعزاء وأحب الأحباء. ولنفاستها فإنه يضن بها ولا يعيرها و لا يبيعها. وقال خالد بن جعفر الكلابي[٢٩٢]:

وَأَوْصِي الرَّاعِيَيْنِ لِيَفْبِقَاهَا لَهَا لَبَنُ الخَلِيَّةِ وَالصَّعُودِ

يوصي الشاعر راعييه ليخصا فرسه عشاءً بلبن الناقة الخلية (وهي الناقة يُجرُّ ولدها فيُجعل تحت أخرى وتخلّى للحلب) ولبن الناقة الصعود (وهي الناقة تسقط ولدها لغير تمام فتعطف على ولد غيرها فتدر) فهو إذًا يكرمها غاية الإكرام ويعزها منتهى الإعزاز. وقال مالك بن نويرة[٢٩٣]:

جَزَانِي دَوَائِي ذُو الخِمَارِ وَصَنْعَتِي إِذَا بَاتَ أَطْوَاءً بَنِيَّ الأَصَاغِرُ

أُعَلِّلُهُمْ عَنْهُ لِيُغْبَقَ دُونَهُمْ وَأَعْلَمُ عِلْمَ الظَّنِّ أَنِّي مُغَاوِرُ

رَأَى أَنِّنِي لاَ بِالقَلِيْلِ أَهُوْرُهُ وَلاَ أَنَا عَنْهُ فِي المُوَاسَاةِ ظَاهِرُ

يفخر الشاعر باهتمامه بجواده ذي الخمار، إذ يسقيه اللبن بينما يبيت أولاده جياعًا وهو يشغلهم ويلهيهم عن اللبن الذي رأوه قد حُلب ليخصَّ به الجواد.

وكانت العرب تعيب الرجل إذا بدا على فرسه الهزال، وخص نفسه وعياله باللبن دونه، لأن الفرس عدة الحرب والنزال،ومن أهمل فرسه أو باعه فليبشر بأنه قد بات هدفًا للغارة والسلب والنهب وسبي الحريم. وقد كانت الغارة وغصب الأموال والأنعام والسطو بالقوة ممارسة معترفًا بها. وكانت الحاجة للخيل ماسَّة للحاق بالغزاة قبل نجائهم. وقد قال المرار الأسدي[٢٩٤]:

---

[٢٩٢] التميمي، كتاب الخيل ، ص١١٦.

[٢٩٣] المصدر السابق، ص١١٨.

[٢٩٤] المصدر نفسه، ص١٠٨.

www.mtenback.com

نُوَلِّيْهَا القَرِيْحَ إِذَا شَتَوْنَا عَلَى عِلاَّتِنَا وَنَلِي السِّمَارَا
رَجَاءً أَنْ تُؤَدِّيْهِ إِلَيْنَا مِنْ الأَعْدَاءِ غَصْبًا وَاقْتِسَارَا

فها هو الشاعر يخص فرسه باللبن الطيب الخالص على قلته في الشدة والمحل، ويطمع أن يسترد ذلك منها فيما تبذل من جهد يوم يغتصب أموال عدوه ويقتسرها.

وقال عنترة العبسي[٢٩٥]:

أَبَنِي زَبِيْبَةَ مَا لِمُهْرِكُمُ مُتَخَدِّدٌ وَبُطُوْنُكُمْ عُجْرُ
أَلَكُمْ بِآلاَءِ الوَشِيْجِ إِذَا مَرَّ الشِّيَاهِ بِوَقْعَةٍ خُبْرُ
إِذَ لاَ تَزَالُ لَكُمْ مُغَرْغِرَةً تَغْلِي وَأَعْلَى لَوْنِهَا صِهْرُ
لَمَّا غَدَوْا وَغَدَتْ قَعِيْدَتُهُمْ مَلأَى وَبَطْنُ جَوَادِهِمْ صِفْرُ

يلوم عنترة إخوته على ترك خيولهم بادية الهزال بينما تنتفخ بطونهم شبعًا، ولعله تعدى حد اللوم إلى الإهانة وهو يعرض بأمهم ويعيب عليهم شبع أنفسهم وجوع خيولهم. وهم لا يرون إلا وقدرهم على النار تغلي لها غرغرة وصوت، شاهدًا على انشغالهم بصنع الطعام لأنفسهم دون خيولهم، وفي ذلك ما فيه من دنو الهمة والقعود عن المكرمات. وكأن الجواد أصبح رفيقًا لا يجوز حتى بيعه والانتفاع به وهو شديد الصلة وفيّ الصحبة، كما يقول الأمعز بن مالك[٢٩٦]:

بَاعُوْا جَوَادَهُمُ لِتَسْمَنَ أُمُّهُمْ وَلِكَيْ يَعُوْدَ عَلَى فِرَاشِهِمُ فَتَى
لَكِن قَعِيْدَةُ بَيْتِنَا مَجْفُوَّةٌ بَادٍ جَنَائِنُ صَدْرِهَا وَلَهَا عَنَى

---

[٢٩٥] التيمي، كتاب الخيل، ص١٠٧.

[٢٩٦] آل إبراهيم، الخيل عند العرب، ص٢٤.

www.mtenback.com

والشاعر أيضًا يقرع إخوته ويعرض بأمهم التي طبقت شحمًا ولحمًا بثمن الفرس التي باعوها. ثم لايلبث أن يعقد مقارنة بينها وبين زوجته التي تبدو أضلاعها من الهزال بسبب اختصاص الفرس دونها باللبن والطعام. لقد أحسن العربي صحبة الحيوان وجاءت الخيل أولى بالصحبة وحسن المعاملة، كما قال أحد شعراء بني عامر موجهًا ملاحظاته إلى قومه منتقدًا حالهم مع خيلهم وما تغير منها، إذ يقول[٢٩٧]:

بَنِيْ عَامِرٍ مَالِي أَرَى الخَيْلَ أَصْبَحَتْ ... بِطَانًا وَبَعْضُ الضَّمْرِ لِلخَيْلِ أَفْضَلُ

أَهِينُوا لَهَا مَا تُكْرِمُونَ وَبَاشِرُوا ... صِيَانَتَهَا وَالصَّوْنُ لِلخَيلِ أَجْمَلُ

مَتَى تُكْرِمُوْهَا يُكْرَمِ المَرْءُ نَفْسُهُ ... وَكُلُّ امْرِئٍ مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ يَنْزِلُ

بَنِيْ عَامِرٍ إِنَّ الخُيُوْلَ وِقَايَةٌ ... لأَنْفُسِكُمْ وَالمَوْتُ وَقْتٌ مُؤَجَّلُ

يبقى إكرام الخيل ورعايتها واجب العربي الغيور على حرماته. ثم يطلب منهم ألا يبخلوا عليها بشيء عزيز عليهم، ولعله يقصد اللبن؛ لأن إكرام الخيل من إكرام النفس وصيانتها من صيانة مكانة الرجل. ويعلل ذلك بأن الخيل تحمي مالكها وتقيه شرور الغارات والحروب واغتصاب الأموال والأنعام مع يقين بأن للموت أجلاً موقوتا. إن هذا يدلنا على استعداد العربي للطوارئ وحرصه على أن يكون السلام والقوة بيديه للدفاع عن نفسه وقومه، وكانت الخيل هي السلاح وهي آلة الدفاع.

وكان لزوجات أصحاب الخيل والفرسان ما يشبه الغيرة من الخيل؛ بسبب ما يوليه الفارس فرسه من إكرام وإعزاز واختصاص بالطعام دون أهل بيته. وكثرت الإشارة فيما قيل من شعر الخيل إلى لوم الزوجات أزواجهن في ذلك. ولم يكن الفارس يتردد لحظة في رده الحاسم الذي يكشف عن تفضيله لصيانة الخيل على علاقة الزوجية، كما وصف حبيب بن حاجب[٢٩٨]:

---

[٢٩٧] التيمي، كتاب الخيل ، ص١١٩.

[٢٩٨] المصدر نفسه، ص١١٩.

www.mtenback.com

وَبَـاتَتْ تَلُـوْمُ عَلَـى ثَـادِقٍ ... لِيَشْـرَى فَقَـدْ جَـدّ عِصْيَانُهَـا
أَلاَ إِنَّ نَجْـوَاكِ فِـي ثَـادِقٍ ... سَـوَاءٌ عَلَـيَّ وإِعْلاَنُهَـا
وَقَـالَتْ أَغِثْنَـا بِـهِ إِنَّنِـي ... أَرَى الخَيْـلَ قَـدْ ثَـابَ أَثْمَانُهَـا
فَقُلْـتُ أَلَـمْ تَعْلَمِـي أَنَّـهُ ... كَرِيْـمُ المكَبَّـةِ مِبْدَانُهَـا
كُمَيْـتٌ أَمَـرُّ عَلَـى زَفْـرَةٍ ... طَوِيْـلُ القَوَائِـمِ عُرْيَانُهَـا

وثادق جواده الذي تطلب منه زوجته أن يبيعه لما رأت أن أثمان الخيل قد زادت، كانوا قد أصابتهم شدة في سنة جدب. ورد الشاعر عليها معلنا عصيانها فيما طلبت سواء أسرت ذلك أم أعلنته. وذلك لأن جواده ضامر طويل القوائم في غير رهل، يحمل به على الأعداء فيهزمهم. ومثله قول مقعد بني شماس السعدي[٢٩٩]:

أَتَـأْمُرُنِي بِكَـنْزَةَ أَمُّ قَشْـعٍ ... لأَشْـرِيَهَا فَقُلْـتُ لَهَـا: دَعِيْنِـي
فَلَـوْ فِـي غَـيْرِ كَـنْزَةَ آمَرَتْنِـي ... وَلَكِنِّـي بِكَـنْزَةَ كَـالضَّنِيْنِ
فَـلاَ وَأَبِيْـكِ لاَ أَحْبُـو خَلِيْـلاً ... بِكَنْزَةَ مَـا حَيِيْـتُ فَـلاَ تَهُوْنِـي

طلبت زوجة الشاعر إليه أن يبيع فرسه كنزة فردّ عليها أن دعيني من هذا الحديث. وعلى الرغم من أنه يعزّ زوجته ويجيبها إلى ما تطلبه، إلا أن الأمر جد مختلف إذا ما تعلق بكنزة. ويخبرها بأنه لا يجامل خليلاً مهمًا قرب من نفسه في أمر يتعلق بكنزة لا يريده هو. ثم هو يحذرها بألا تفقد مكانتها في نفسه فتهون عنده بتعرضها لكنزة.

أما عنترة العبسي فيقول[٣٠٠]:

---

[٢٩٩] ابن الكلبي، أنساب الخيل، ص١٠٠.

[٣٠٠] آل إبراهيم، الخيل عند العرب ص٢١.

www.mtenback.com

لاَ تَذْكُـرِي مُهْـرِي وَمَـا أَوْلَيْتُـهُ ... فَيَكُوْنُ جلدُكِ مِثْلَ جلـدِ الأَجْـرَبِ
إِنَّ الغَبُـوقَ لَـهُ وَأَنْـتِ مَسُـوْءَةٌ ... فَتَأَوَّهِي مَـا شِـئْتِ ثُـمَّ تَحَوَّبِـي
كَذَبَ العَتِيْـقُ وَمَـاءُ شَـنٍّ بَـارِدٌ ... إِنْ كُنْتِ سَائِلَتِي غَبُوْقِـي فَـاذْهَبِي
إِنِّـيْ لأَخْشَـى أَنْ تَقُـوْلَ حَلِيْلَـتِي ... هَـذَا غُبَـارٌ سَـاطِعٌ فَتَلَبَّـبِ
إِنَّ الرِّجَـالَ لَهُـمْ إِلَيْـكِ وَسِـيْلَةٌ ... أَنْ يَـأْخُذُوْكِ تَكَحَّلِـي وَتَخَضَّبِـي
وَأَنَـا امْـرُؤٌ إِنْ يَـأْخُذُونِي عُنْـوَةً ... أُقْرَنْ إِلى سَـيْرِ الرِّكَـابِ وَأُجْنَـبِ

وقد عنف عنترة زوجته تعنيفًا شديدًا لما تحدثت إليه في مهـره وهددهـا بـأن جلدها سيكون مثل جلد الأجرب، كناية عن ضربها إن زادت اللوم عليه. ثم ذكر لهـا أن المهر مخصوص باللبن عشاءً دونها،وليس لها سوى الماء فلا تطمع في اللبن. ولعلـه أحس شدة هذا الكلام الجارح فراح يعلل اهتمامه بالمهر بأنه يعده ليوم الكريهة. ثـم يبين لها أن سبيها هين إذا ما قيس إلى ما يلقاه هو في الأسر من مهانة وإذلال.

ولعلنا نلحظ من مجمل هذه الأشعار والآثار حسن صحبة العربي لفرسه والمكانة الرفيعة للخيل في نفسه، ولا غرو؛ فهي درعه الحصين في وجوه أعدائه، وحارسه الأمين من أيدي الصعاليك واللصوص،وبها يطرد الصيد فيصيب منه طعامه، ويمتع بها نفسه في السباق والرهان، ويقطع على ظهرها المسافات في سرعة لا تحققها الناقة. ولما لـزم العربي الجاهلي الخيل في كل هذه المواضع، وصحبها في كل هذه المهام، فقد رعى هذه الملازمة وأحسن هذه الصحبة؛ فأغضب من أجلها الحليلة والعيال، وأجاعهم حتى بـدا عليهم الهزال. فأكرم صحبتها وأحسن التعامل معها.

و لم تكن مكانة الخيل عند المسلمين بأقل منها عند عرب الجاهلية، غير أن دوافع اتخاذها اختلفت عنها في الجاهلية باختلاف مجمل التوجه وطرائق التفكير. وقد ذكر الله تعالى الخيل في القرآن الكريم في مواضع عدة. وليس أدل على علو مكانتها من قسـم

www.mtenback.com

الله سبحانه بها حيث قال: ﴿وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾[٣٠١] وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ﴾[٣٠٢] وقال ﷺ:«الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٣٠٣].

واتخذ رسول الله ﷺ الخيل وارتبطها وأعجب بها وحض المسلمين على اتخاذها وإكرامها وبين ما لهم فيها من البركة والأجر، وأمرهم ألا يضعوا على أعناقها أوتار القسي كما كان يفعل الجاهليون دفعًا للعين. وقال:«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة، وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار»[٣٠٤]. وفضل الخيل في السُهمان على أصحابها فجعل للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا. وذكر ابن الكلبي أن رسول الله ﷺ راهن على الخيل وجعل لها سباقًا، وتراهن عليها أصحابه، قال[٣٠٥]: راهن رسول الله ﷺ على فرس له يقال لها (سبحة) فجاءت سابقة فهش لذلك وأعجبه. ثم سابق بين الخيل المضمرة، فأرسلها من الحفيا إلى ثنية الوداع (والحفيا مكان بالمدينة المنورة وكذلك ثنية الوداع، والمسافة بينهما ستة أميال أو سبعة). وسابق أيضًا بين الخيل غير المضمرة، فأرسلها من ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق، والمسافة بينهما ميل أو نحوه، وسابق بينها على حلل أتته من اليمن. فأعطى السابق ثلاث حلل، والمصلي (الثاني) حلتين، والثالث حلة،والرابع دينارًا، والخامس درهمًا، والسادس قصبة، وقال له: بارك الله فيك، وفي كلكم، وفي

---

[٣٠١] سورة العاديات: ١.

[٣٠٢] سورة آل عمران: ١٤.

[٣٠٣] البخاري، صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج٢، ص١٣٥ /٢٦٥٣.

[٣٠٤] الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، ج٦، ص٢٨٢/ ٤٦١٦.

[٣٠٥] ابن الكلبي، أنساب الخيل، ص٨.

www.mtenback.com

السابق والفسكل(أي الذي يجيء آخرًا). وأجرى الخيل فسبق سعد الساعدي على فرس لرسول الله ﷺ، فكساه بردًا يمانيًا. وذكر بعضهم (البحر) في خيل رسول الله ﷺ، وأنه جثا على ركبتيه ومسح وجهه وقال:«ما أنت إلا بحر» فسمي (البحر).

ولعلنا نلمس بوضوح فيما رواه ابن الكلبي إكرام رسول الله ﷺ خيله، إذ كان يمسح على وجوهها، ويتهلل ويعجب لسبقها، ويثيب الفرسان على ظهورها بالهدايا والجوائز، ويسميها بأحسن الأسماء.

ارتبط غالب شعر المسلمين في الخيل بغرض الحماسة وشعر الحرب، فقد كان لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣٠٦] أثر بالغ في إذكاء هذه الحماسة. قال كعب بن مالك[٣٠٧]:

وَنُعِدُّ لِلأَعْدَاءِ كُلَّ مُحَصَّنٍ ... وَرْدٍ وَمَحْجُولِ القَوَائِمِ أَبْلَقِ

أَمَرَ المَلِيكُ بِرَبْطِهَا لَعَدُوِّهِ ... فِي الحَرْبِ إِنَّ اللهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ

فَتَكُونَ غَيْظًا لِلعَدُوِّ وَحَائِطًا ... لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ المُرَّقِ

وقال شاعر من الأنصار[٣٠٨]:

الخَيْرُ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرَبَتْ ... مُعَلَّقٌ بِنَوَاصِي الخَيْلِ مَطْلُوبُ

وقال مكحول بن عبد الله[٣٠٩]:

تَلُوْمُ عَلَى رَبْطِ الجِيَادِ وَحَبْسِهَا ... وَوَصَّى بِهَا اللهُ النبِيَّ مُحَمَّدَا

---

[٣٠٦] سورة الأنفال: ٦٠.

[٣٠٧] التيمي، كتاب الخيل، ص١٢٣.

[٣٠٨] المصدر نفسه، ص١٢٣.

[٣٠٩] المصدر نفسه، ص١٢٣.

www.mtenback.com

ذَرِينِي وَعُدِّي مِنْ عِيَالِكِ شَطْبَةً عَنُودًا وَمَسْمُولَ الجَوَانِحِ أَقْوَدَا

ولما لم يغير العربي من عادة اهتمامه بفرسه بعد إسلامه فقد ظلت زوجته تلحاه وتلومه كما كانت تفعل في الجاهلية، وبقي الرد عليها كما هو (ذريني) واعتبري فرسي واحدًا من عيالك.

وقال صعصعة بن معاوية السعدي[٣١٠]:

مَا كُنْتُ أَجْعَلُ مَالِي فَرْغَ دَالِيَةٍ فِي رَأسِ جِذْعٍ يَصُبُّ المَاءَ فِي الطِّيْنِ

بَنَاتُ أَعْوَجَ تُرْدِي فِي أَعِنَّتِهَا خَيْرٌ خَرَاجًا مِنَ القَثَّاءِ وَالتِّيْنِ

الخَيْلُ مِنْ عُدَّةٍ أَوْصَى الإِلَهُ بِهَا وَلَمْ يُوَصِّ بِغَرْسٍ فِي البَسَاتِيْنِ

كَمْ مِنْ مَدِيْنَةِ جَبَّارٍ أَطَفْنَ بِهَا حَتَّى تَرَكْنَ الأَعَالِي كَالمَيَادِيْنِ

قارن الشاعر في هذه الأبيات بين امتهان الزراعة واتخاذ الخيل، فيقول: إنه لا يجعل ما له في ساقية تصب الماء على الأرض لتسقي الزرع، وأن خيله الكريمة المنسوبة إلى الفحل (أعوج) تعود عليه بخير أوفر مما تعود به محصولات الزراعة. وهو يعلم أن الله قد أوصى باتخاذ الخيل ولم يوصِ بغرس البساتين والمزارع،ولعله قد غلط في هذا. ويواصل ذكر فضائل الخيل فيقول إنها مشهود لها بالظفر في المعارك حيث تخلف مدن الأكابر مدمرة قد سويت أبنيتها الشاهقة بالأرض.

صحبة الإنسان بعض الأشياء:

صحب العربي بعض الأشياء ولازمها ولازمته، واعتز بهذه الصحبة وتفاخر، ومنها السيف والرمح والعصا والكتاب والقلم، وجمع معظم ذلك بيت المتنبي المشهور:

الخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ

وما عرفته إلا بكثرة ملازمته إياها.

---

[٣١٠] التيمي، كتاب الخيل، ص١٢٤.

www.mtenback.com

ويرمز استصحاب السيف إلى الشجاعة التي هي أبرز مفاخر العربي،وإلى انصراف همته إلى مقارعة الأبطال ومنازلتهم واستعداده لذلك في كل حين باستصحاب السيف. ووصف هذا السيف وتفنن في وصفه،ووضع له من الأسماء والأوصافَ عدداً وافراً في لغته. واهتم بتنظيفه وشحذ شفرته. وكان يسقيه السم إذا أراد أن يشفي غليله من عدو. وتفنن صناع السيوف في نقش المقابض وتجويد صنعة الأغماد. وكان العربي يهتم اهتماماً بالغًا بتدريب أبنائه على استعمال السيف متى ما أطاقوا حمله. ولقد حظي الرمح هو الآخر بدرجة من الاهتمام غير يسيرة، ولكنها دون درجة السيف، وصحب العربي العصا ولا سيما بعد الإسلام، إذ أصبح ذلك من أمر الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ، بل أصبح من أمر الطاعة،إذ إنه أمر باتخاذها والتوكّي عليها. ذكر الأصبهاني أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «التوكؤ على عصا من أخلاق الأنبياء، وكان لرسول الله ﷺ عصًا يتوكأ عليها، ويأمرنا بالتوكّي على العصا».

أما استصحاب الكتاب فقد كان رمزًا للانصراف للمعرفة والعلم،والانشغال بالمعالي،والانتماء إلى طبقة العلماء وطلاب العلم. وكذلك حظي القلم بإحسان الصحبة باعتباره أداة كتابة الكتب وخطها وآلة استفراغ حصائد العقول في القراطيس. إلا أن الكتاب يبقي سيد الأشياء التي صحبها الإنسان وأحسن صحبتها وأغنته عن صحبة ما سواها من الأشياء.

ونَعِمَ بعضُ الناس بصحبة الكتاب واستراح لها، وجنى منها متعة، وحقق بها في أحايين كثيرة استغناء عن صحبة الخلق. والاستغناء بصحبة الكتاب عن صحبة الخلق معنى تردد كثيراً فيما أثر من شعر ونثر عن العرب في مدح صحبة الكتاب. ذلك أن الكتاب لما كان جماداً فقد أمن صاحبه ضعف خلقه من مكر وخداع ونفاق. وحفظ نفسه من حاجة إلى المداراة والتغاضي والإعذار وبذل الجهد في النصح والتقويم.

www.mtenback.com

والكتاب بعد صاحب مطيع، يأتيك على هواك، فإنك تصله متى شئت وتهجره أنى أردت، ولا يظهر لك ملالاً، ولا يشكو منك جفوة. ومجالسة الكتاب تعصم صاحبها من الاضطرار لإزالة الوحشة بمجالسة السفهاء والبغضاء ورفاق السوء. ونجد لصحبة الكتاب في كتب التراث فضائل موفورة ومناقب جزيلة. قال المتنبي[٣١١]:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وقال أبو الحسن بن عبد العزيز[٣١٢]:

مَا تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ العَيْشِ حَتَّى ... صِرْتُ فِي وَحْدَتِي لِكُتْبِي جَلِيْسَا

وقال شاعر[٣١٣]:

اجْعَل جَلِيْسَكَ مَجْمُوْعًا تُطَالِعُهُ ... لِتَسْتَفِيْدَ مِنْ الآدَابِ وَالحِكَمِ

وَاتْرُكْ مَجَالِسَ أَقْوَامٍ تُجَالِسُهُمْ ... فَتَكْسَبَ الإِثْمَ مِنْ سَمْعٍ وَمِنْ كَلِمِ

وأكثر الكتب استئثاراً بصحبة الإنسان كتاب الله الكريم. فهو يرتفع على سائر الكتب بأنه تنزيل من لدن حكيم خبير. وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الحبل المتين والعروة الوثقى، والصراط المبين، وإنه شفاء الصدور والأبدان ومزيل ما ران على القلوب ومفرج الهموم ومنفس الكروب. ولئن كان خير جليس في الزمان كتاب، فخير الكتب كتاب الله العظيم، فصار الجليس الذي لا يدانى فضلاً، والصاحب الذي لا يقارب وفاءً.يعطيك أضعاف ماتعطيه، ويرفدك بما لا يفعل غيره. قال الشيخ الألوسي[٣١٤]: كتاب الله أفضل مؤانس، وسميري إذا احلولكت الحنادس.

---

[٣١١] القاضي، الحديقة اليانعة، ص٢٨٤.

[٣١٢] المصدر نفسه، ص٢٨٤.

[٣١٣] الأحيدب، حكم ومآثر، ج٢، ص١.

[٣١٤] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، القاهرة، المركز الإسلامي للطباعة والنشر، (د.ت)، ص٣.

www.mtenback.com

وأنشد:

نِعْمَ السَّمِيْرُ كِتَابُ اللهِ إِنَّ لَهُ ... حَلاَوَةً هِيَ أَحْلَى مِنْ جَنَى الضَّرَبِ
بِهِ فُنُونُ المَعَانِي قَدْ جَمَعْتُ فَمَا ... تَغْتَرُّ مِنْ عَجَبٍ إِلاَّ إِلَى عَجَبِ
أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَأَمْثَالٌ وَمَوْعِظَةٌ ... وَحِكْمَةٌ أُوْدِعَتْ فِي أَفْصَحِ الكُتُبِ
لَطَائِفُ يَجْتَلِيْهَا كُلُّ ذِيْ بَصَرٍ ... وَرَوْضَةٌ يَجْتَنِيْهَا كُلُّ ذِيْ أَدَبِ

وقال ابن الجهم[٣١٥] إذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه، فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقة، مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم، كثير الورق، كثير العدد، فقد تم عيشي، وكمل سروري.

ولعلنا لا نقف – في آثار السابقين – على وصف للكتاب ومدح لمجالسته مثل الذي فعله الجاحظ، فقد أطنب في ذلك وأجاد. قال[٣١٦]:«والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستميح الذي لا يشريك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب. والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك،وبسط لسانك، وجود بنانك، وفخم ألفاظك، وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام،و صداقة الملوك، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقًا،وأكرم منه عرقًا،ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء.

---

[٣١٥] الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، بيروت، دار صعب، (د.ت)، ج١، ص٤٢.

[٣١٦] الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١، ص٤١.

www.mtenback.com

والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر. وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخفرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك،ومتى كنت منه متعلقًا بسبب أو معتصمًا بأدنى حبل، كان لك فيه غنى من غيره. و لم يضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السوء.ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم،ومن فضول النظر، ومن عادة الحرص،ومن ملابسة صغار الناس،وحضور ألفاظهم الساقطة،ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديئة، وجهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى،وعن اعتياد الراحة،وعن اللعب وكل ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة.

ظل كثير مما قيل في القيم الخلقية عند العرب حبيس كتب التراث مع غيره من الآثار الأدبية. وهي كتب يغلب ألا يقرأها عامة القراء،ولا يقربها إلا أصحاب البحوث والدراسات. ثم إنها في المكتبات الخاصة بالمؤسسات التعليمية تصنف على أنهامراجع،و أنها ليست للإعارة. ويُشيع هذا التصنيف في أذهان الطلاب وعموم الشباب أنها ليست للاطلاع العام، وإنما هي خاصة بأصحاب الدراسات والباحثين، وهذا ما جعل قدرًا كبيرًا من كنوزها ولطائفها بعيدًا عن المعرفة العامة.

وقد حدا بنا هذا إلى أن نتتبع واحدة من كريم قيم العرب وشمائلهم، وهي قيمة الصحبة وحسن العشرة ولين الجانب، في كتب التراث هذه، لنستجلي ما قيل فيها ونقدمه للشباب والناشئة في لغة أيسر،وقالب أقرب إلى التنظيم والوضوح والتحديد. ثم نقدم قدرًا من التحليل للنصوص التي أوردناها تحت العنوانات المختلفة.

www.mtenback.com

وها نحن قد أتينا على ما فصلناه من فصول هذا البحث وقد صوبنا فيه سعينا نحو الشباب والناشئة. و لم يكن ما حاولنا من استجلاء هذه القيمة عند الأسلاف لنفاخر بالماضي الخلقي للأجداد،ولا لإضفاء ضرب من القدسية على ما صنعوا، ولا لتمجيد التاريخ بما يبعث نشوة في نفوس شباب العرب، ويشيع طربًا في وجدانهم. وكل هذا ممكن وجائز ومشروع إذا اقترن بالعمل على إحياء هذه القيمة وغيرها من كريم القيم بالممارسة. ولاحجة لمن يدعي أن اختلاف الأزمنة والأمكنة يوجب اختلاف أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية، لأن مثل هذه القيم لا تتغير بتغير الزمان والمكان واختلاف أنماط الحياة ووسائل العيش وأدوات تيسيره. ولذا فإننا نطمح إلى أن يأخذ الشباب بالصحبة،وأن يحسن عشرة من يصاحبهم من أفراد الأسرة والإخوان،وأن يكون لهم هينًا لينًا لا فظًا غليظا. ثم ليعلي من شأن القيمة نفسها،ويخصها بمكان حسن فسيح في ما يسجل من ثقافة في كتب الأدب والاجتماع. وليحرص على تلقينها أولاده من بعده، حفاظًا على بقائها حية في العلاقات الاجتماعية، حتى لا يصيبها مع غيرها ما أصابها من التغييب في فترات انهزام الثقافة العربية.

موقع الدكتور محمد تنبك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مصطفى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
آل عمران	﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ... الآية﴾	١٣٤	٦١
	﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ... الآية﴾	١٤	٨٦
النساء	﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ... الآية﴾	٣٦	١٩
	﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ... الآية﴾	١٩	٢٠
	﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ... الآية﴾	٨٥	٤٨
المائدة	﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ... الآية﴾	١٠٣	٧٨
الأنعام	﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا...الآية﴾	١٢٨	٧٨
الأنفال	﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ... الآية﴾	٦٣	١٠
	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ... الأية﴾	١٠	٨٧
الحجر	﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ... الآية﴾	٨٥	٦١
لقمان	﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا... الآية﴾	١٧	٢٢
فصلت	﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ... الآية﴾	٣٤	٦١
الحجرات	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... الآية﴾	١٠	١٠
المجادلة	﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا... الآية﴾	١١	٦٨
الحشر	﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ... الآية﴾	٩	٤٩
العاديات	﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا... الآية﴾	١	٨٩

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«أحبب حبيبك هوناً ما...»	٣٩
«إذا كنتم ثلاثة في السفر..»	٧٧
«الأرواح جنودٌ مجندة..»	١٧
«استوصوا بالنساء خيراً..»	٢٠
«اشفعوا فلتؤجروا..»	٤٨
«أفضل دينار ينفقه الرجل..»	٢٥
«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً..»	٢٠
«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء..»	٢٩
«إن من أبر البر..»	٢٣
«إن من حق الولد..»	٢٤
«تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر..»	٤٩
«جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال..»	٢٣
«حقت محبتي للمتحابين فيّ..»	١٠
«خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم..»	٢٨
«الخيل معقود في نواصيها الخير..»	٨٦
«الرجل على دين خليله..»	١٧
«رويدك سوقاً بالقوارير..»	٢١
«لا تَعَلَّموا العلم لتباهوا به العلماء..»	٧٤
«لا تحقرن من المعروف شيئاً..»	٤٣
«لا يجزي ولد والداً..»	٢٣
«لا يستر عبد عبداً في الدنيا..»	٤٦

www.mtenback.com

الحديث	الصفحة
«لا يفرك مؤمن مؤمنة..»	٢١
«... ولو كنت متخذاً خليلاً..»	١٩
«لو يعلم الناس ما في الوحدة..»	٧٦
«المؤمن مألفة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»	١٠
«من عال جاريتين..»	٢٦
«هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم..»	٢٧
«ويحك قطعت عنق صاحبك..»	٤٧
«يا عائشة، إن الله رفيق..»	٢١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ء ـ		
إذا ما كُنْتَ	إخاء	–	٢	٣١
ما الفَخْرُ	أَدلاَّءُ	علي بن أبي طالب	٣	٦٨
باعوا	فتًى	الأمعز بن مالك	٣	٨٢
		ـ ب ـ		
ذَهَبَ	الأجربِ	لبيد بن ربيعة	١	٥٣
لا تَذْكُرِي	الأجربِ	عنترة العبسي	٦	٨٥
العُذْرُ	أربُ	–	٢	٦٦
ما في المقام	اغربِ	الإمام الشافعي	٧	٧٥
خُذِي	أغضبُ	–	٤	٢٢
فقلتُ	أقاربُ	–	٢	٣٤
أقللْ	بعتابِ	منصور النمري	١	٦٣
إذا ما امرؤٌ	الذَّنْبُ	–	١	٦٥
فيا خيرَ	صاحبِ	البحتري	١	٤٨
عَدُوُّكَ	الصِّحابِ	ابن الرومي	٤	٣٦
نعْمَ الشَمِيرُ	الضَّرْبِ	الشيخ الألوسي	٤	٩١
وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ	عاتبِ	عبيد المدائني	٢	٦٠
إنْ كُنْتَ	غائبِ	–	٢	٣٤
وإنَّ عُرَيْباً	قَريبِ	ثعلبة بن عمرو الشيباني	١	٧٩
إنَّ الهَدِيَّةَ	القُلُوبا	–	٣	٥٠
أَعَزُّ	كِتابُ	المتنبي	١	٩٠

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
تَوَدُّ	لعازبُ	العتابي	٢	٣٠
فَعُذْرَكَ	مَرْحبِ	ابن الرومي	٣	٤٠
همُ الناسُ	مشربا	ابن الرومي	٢	٥٨
ولكنَّ الَجوادَ	المغيبِ	إبراهيم بن العباس	٢	٥٧
أخوكَ	يغضبُ	حجية بن المضرب	١	٣٠
— ح —				
وجدتُ	الرَّاحِ	البحتري	١	٣٧
أخاكَ	سلاحِ	–	٢	١١
لم أُواخذْكَ	الصَّحيحِ	أبو نواس	٢	٤٠
ما عاتَبَ	الصالحُ	لبيد بن ربيعة	١	١٢
لَمَودَّةٌ	الكاشحِ	–	١	٣٧
— د —				
صلْ	أَحَدا	نصير الجزأرزي	٢	٦٢
يا حَبَذا	بالبَلَدْ	–	١	٢٤
فإنّي رأيتُ	بسرمَد	أبو تمام	١	٤٢
نَفْسي	الجَليدا	أعشى سليم	٢	٢٤
أخٌ	جوادا	–	٤	٣٢
أشْكُو	رَقَدوا	العباس بن الأحنف	٢	٥٣
هَجَرتُكَ	الصُّدودِ	–	٤	٦٧
وأُوْصي	الصُّعودِ	خالد بن جعفر الكلابي	١	٨١
تغرَّبْ	فوائدِ	الإمام الشافعي	٢	٧٦
أُحبُّ	لَحْدِ	ابن الأعرابي	٢	٢٧

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
له نعم	يزيدها	الخزيمي	٢	٤٨
تلومُ	مُحَمَّدا	مكحول بن عبدالله	٢	٤١
همومُ	مُساعِدُ	–	٢	١١
عَنِ المرْءِ	مُقْتَدِ	–	١	١٧
أريقُوني	الوَرِيدِ	خالد بن جعفر الكلابي	٢	٧٩
وصاحبٍ	ولَدِ	–	٦	٥٥
		ـــ ر ـــ		
جزائي	الأصاغِرُ	مالك بن نويرة	٣	٨١
لا ترجُ	باعتذارِ	–	١	٦٦
فسلْ	تدبُّرِ	أبو سليمان الغنوي	٢	٧١
توقَّفْ	تزورُ	لبيد بن ربيعة	١	٤٢
نزورُكمْ	زارا	–	٢	٤١
نولِّيها	السِّمارا	المرار الأسدي	٢	٨٢
أنتمْ	سُمَّارِي	–	٣	٣٧
أزورُ	الصُّدورِ	–	٢	٤١
أَبَنِي زيبةَ	عُجْرُ	عنترة العبسي	٤	٨٢
أقبلْ	فجرا	–	٢	٦٤
فلا تعذراني	فَيُعْذَرُ	–	١	٦٦
ومستودعي	قَبْرا	ابن المعتز	١	٤٦
أسدٌ	قدرا	إبراهيم بن العباس	٢	٥٧
خذْ	الكَدَرْ	–	٢	٦٣
نُبئتُ	محذور	–	٢	٤٦

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
ليس الصَّديقُ	مغفور	–	٣	٦٥
إذا اعتذرَ	مُقِرّ	–	٢	٦٤
اقْبَلْ	نزْرا	الرياشي	٢	٦٠
وما السِّرُّ	النشرا	–	٣	٤٧
رأيتُ	يدري	–	٢	٤١
كم من أخٍ	يسر	حماد عجرد	٥	٥٦
ألا رُبَّ مَنْ تَدْعُو	يَقري	سويد بن الصامت	٣	٥٤
— س —				
ما تَطَعَّمْتُ	جَليسا	أبو الحسن بن عبدالعزيز	١	٩٠
— ص —				
ما كدتُ	الفحص	–	١	٥٩
— ض —				
لولا بُنَيَّاتٌ	بعضِ	–	٤	٢٦
— ع —				
أبيتَ اللعْنَ	تباع	عبيدة بن ربيعة التميمي	٢	٨٠
داويته	الموسع	متمم بن نويرة	١	٨٠
وكُن معْدنـــاً	سامعُ	أبو الأسود الدؤلي	٣	٣٩
إذا ما لم يكُنْ	سمْعا	أبو العتاهية	٢	٤٤
قَمَرُ	طَلَعا	ابن الرقاع	٣	٤٤
— ف —				
يا فاخراً	الشّرفِ	–	٣	٧٠

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
خُذْ	صفا	ابن أبي خازم	١	٦٣
لَقَدْ زادَ	الضِّعافِ	–	٣	٢٧
وقائل	إنصافُ	–	٢	٣٥
	ـــ ق ـــ			
وَنُعِدُّ	أبلقِ	كعب بن مالك	٣	٨٧
احذرْ	الخلقْ	أبو العتاهية	٤	٣٢
أبيضُ	عتيقِ	الزبير بن العوام	٣	٢٤
جَعَلوا	الميثاقِ	–	٤	٦٧
	ـــ ك ـــ			
لئن ساءني	ببالكَ	–	١	٦٢
لو كنت	عذلتكَ	الخليل بن أحمد	٢	٦٥
إنّ أخاكَ	لينفعكْ	–	٢	٣١
عليكَ	مسلكا	–	٢	٤٢
	ـــ ل ـــ			
بني عامرٍ	أفضلُ	–	٤	٨٣
تناساني	تحولُ	أبو فراس الحمداني	٤	٥٣
أغمّضُ	جاهلُ	ثعلب	٢	٦١
إخْوان	جُبِلوا	–	٤	٥٢
إذا رأَيْتَ	خَلَلُ	–	٢	٥٦
قَدْ بَعَثْنَا	قَبُولِ	الطائي	٣	٥٠
وَلكنّ عَبْدَالله	مالُ	إبراهيم بن العباس	٢	٥٧

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
هَدِيَّتي	مالي	–	٢	٥١
أَبِنْ	مِثْلي	–	١	١٧
مَوالينا	مَوالي	–	١	٥٦
لا تَحْتَقِرْ	يُشاكِلُ	–	١	٣٤
إذا أَنْتَ	يَعْقِلُ	جرير	٢	٣٨
— م —				
وَكُنْتُ	أقوم	–	١	٣٣
وإنَّ عَناءً	أَعْلَمُ	صالح بن عبد القدوس	٢	٧٠
اجْعَلْ	الحِكَمِ	–	٢	٩٠
مُجالَسَةُ	الحَكِيمِ	–	٢	٣٥
وَداعُكَ	الدِّيَم	–	٢	٤٥
لَوْلا أُمَيْمَةُ	الظُّلَمِ	–	٤	٢٧
حَقٌّ	العَجَمِ	–	٣	٢٢
لَيْسَ الكَرِيمُ	عَلما	–	٢	٤٧
الخَيْلُ	القَلَمُ	المتنبي	١	٨٨
ولو أنَّ أهْلَ	لَعَظَما	–	٢	٧٥
فإنْ لَطَفَ	للحكَمْ	–	٣	٧٤
أَخُوكَ	واجما	علي بن أبي طالب	٢	٣٠
وَشَرٌّ	يَذُمْ	أبو العتاهية	٢	٥٣
إنَّ المُعَلِّمَ	يُكْرَما	–	٢	٦٩
— ن —				
ذُو الوُدِّ	إخْواني	الطائي	٣	٣٤

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
ما ذُقْتُ	أمين	–	٢	٣٦
إذا رأَيْتُ	أوطاني	–	٢	٦٢
لَيْتَ شعْري	تَحْكُمُونا	حماد عجرد	٢	٣٨
وإنّ أَوْلَى	الحَزَن	دعبل الخزاعي	٢	٣٨
أَتَأْمُرُني	دَعِيني	مقعد بن شماس	٣	٨٤
أَبْكِي	دُوني	–	٢	٣٢
خَليلان	السَّمَنْ	الأسعر بن أبي حمران	١	٨٠
ما كُنْتُ	الطِّين	صعصعة بن معاوية	٤	٨٨
وكُنْتَ	عَوَانا	إبراهيم بن العباس	٣	٥٤
لَعَمْري	عُيُونُ	معقل	٢	٤٠
النّاس	لَـيِّنِ	–	٢	٢٩
بدَوْلَـةٍ	مَهْرَجانُ	أبو السمط	٣	٥١
	ـ هـ ـ			
أَنْت ما اسْتَغْنَيْتَ	أَخُوهُ	أبو العتاهية	٢	٥٥
أَقْلِلْ	اسْتَجَدَّه	–	٢	٤٢
أَبْلِغْ	أَلْقاهُ	–	٢	٣٧
فلا تَصْحَبْ	إيّاهُ	علي بن أبي طالب	٥	٣١
خَليلٌ	بمائه	–	٢	٣٣
إذا كُنْتَ	تُعاتِبُهْ	بشار بن برد	١	٦٣
أَهْدَى	تُعْليه	أبو إسحاق بن هلال	٣	٥٢
العَالِمُ	جِنْسه	أبو بكر بن دريد	٣	٦٨
احْذَرْ	الحَلاوَة	–	٢	٥٤

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
أَخٌ لِي	خُطُوبُها	—	٢	٦٠
لا تَحْقِرَنْ	رامقهْ	أبو بكر بن دريد	٣	٦٩
ارْضَ	ظَاهِرُهْ	ابن أبي خازم	٢	٥٩
وباتَتْ	عِصْيانُها	بن حاجب	٥	٨٤
وَحْدَهُ	عِنْدَهْ	—	٢	١٦
أُعْذُرْ	عُيُوبه	الرضي	٤	٦٤
مَتَى يَصْرِمْ	قِلاهُ	أبو العلاء المعري	٢	٦٣
إنَّ في حِصَّةَ	لَقَلَّهْ	أبو العتاهية	٢	٦٠
أُحِبُّهُ	مَالَهْ	—	٣	٢٥
لا بِرَّ	مُساعَدَتَهْ	محمود الوراق	٣	٦١
إذا أَنْتَ	مَشارِبُهْ	بشار بن برد	١	٥٩
ومَنْ ذا الذي	مَعايِبُهْ	بشار بن برد	١	٥٩
أَقَلَّ	هجرانه	—	٤	٤٢
— ي —				
فَلَسْتُ	راضِيا	عبد الله بن معاوية بن جعفر	٢	٤٠
إذا كُنْتَ	الرَّدِي	عدي بن زيد	١	٣٥
فأَنْتَ أَخِي	لِيا	جرير	٤	٥٥
وإنِّي لأَسْتَحِيِ	لِيا	جرير	١	٣٨
بَاعُوا	فَتَى	الأمعز بن مالك	٢	٨٢

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود:

روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، المركز الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

آل إبراهيم، محمد الصالح:

الخيل عند العرب، د.ت.

الأحيدب، عبدالعزيز محمد.

حكم وأدب من مآثر العرب، بيروت، ١٩٦٨م.

الإمام أحمد، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني:

المسند، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري:

صحيح البخاري بشرح الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

البنا، أحمد عبدالرحمن:

الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار الشهاب، القاهرة، د.ت.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:

الجامع الصحيح، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.

www.mtenback.com

التيمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى:

- كتاب الخيل، القاهرة، ١٩٨٦م.
- كتاب أيام العرب، دار الجاحظ للطباعة والنشر، ١٩٧٦م.

التوحيدي، أبو حيان:

رسالة الصداقة والصديق، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م.

الجاحظ، عمرو بن بحر:

كتاب الحيوان، دار صعب، بيروت، د.ت.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر:

مختار الصحاح، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

أبو السعود، عبد رب النبي علي:

الأخوة الإسلامية، دار التوفيق النموذجية للطباعة، القاهرة، ١٩٩٠م.

السلمي، عبدالرحمن الحسين بن محمد بن أبي موسى:

آداب الصحبة، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩٠م.

الشافعي، الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس:

ديوان الإمام الشافعي، شرح وتقديم.الدكتور عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد:

العقد الفريد، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٩م.

العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر:

فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

www.mtenback.com

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل:

ديوان المعاني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

غالي، إلياس سعد:

حديقة الصداقة والصديق في لزوميات أبي العلاء المعري، دمشق، ١٩٨٢م.

الغزالي، الإمام أبو حامد محمد بن محمد:

إحياء علوم الدين، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

أبو فراس الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدوني:

ديوان أبو فراس الحمداني، شرح وتقديم.عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب:

القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م.

القاضي، محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان:

الحديقة اليانعة والبروق اللامعة في تحرير أحكام الشريعة الساطعة، دار الجيل للكتب العربية، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري:

عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

قراعة، محمود علي:

الأخلاق في الإسلام من أحاديث الرسول وفتاوي ابن تيمية، دار مصر للطباعة، القاهرة، د.ت.

القرطبي، الإمام أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر:

بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت.

www.mtenback.com

ابن الكلبي، أبو المنذر هشام:

أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، دار الكتب المصرية، ١٩٤٦م.

ابن ماجة، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني:

سنن ابن ماجة، تحقيق.مصطفى محمد الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، ١٩٨٣م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري:

أدب الدنيا والدين، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨م.

مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري:

صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٦م.

المقدسي، أبو القاسم علي بن بلباز:

المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية وما أضيف إليها من الحكايات الوعظية والأشعار الزهدية، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، د.ت.

المليجي، حسن خميس:

الأدب والنصوص لغير الناطقين بالعربية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٩م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي:

لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.

الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة:

الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ١٩٧٩م.

www.mtenback.com

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف:

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار الكتاب العربي، بـــيروت، ١٩٨٥م.

الهاشمي، السيد أحمد مختار:

الأحاديث النبوية والحكم المحمدية، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، د.ت.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com